إسلاميات جبران

النصوص الكاملة

مع دراسة مقارنة

دراسة وتقديم

أ. أحمد حسين حافظ

obeikandl.com

obeikandl.com

اسم الكتاب: إسلاميات جبران

دراسة وتقديم: ا. أحمد حسين حافظ

رقم الإيداع	٢٠١٠/١٦٠٢٩

الناشر: **مكتبة الشريف ماس للنشر والتوزيع**

١٦٥ ش محمد فريد – الدور الثالث – القاهرة

تليفاكس: 23900867 (202)

محمول: 0107112712 (+2) – 0161208447 (+2)

e-mail: sheriff_mass2010@yahoo.com

الطباعة: **البدر للطباعة والتوريدات**

تليفون: 35610061 (202)

3564360 (202)

0124142709 (+2)

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

كثيراً ما تناول الباحثون والمتخصصون أدب جبران وانتاجه الفكري، وكثيرة هي الدراسات التي أُلفت عن جبران وعن حياته وفنه الشعري والأدبي وعبقرية رسومه. لكنني لم أجد من أفرد كتاباً بعينه يضم جميع ما كتبه جبران عن الإسلام والمسلمين في شتى العصور، وهو ما حفزني للقيام بعمل تلك الدراسة، والقيام بجمع كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين في شتى مؤلفات جبران، محاولاً سد فراغ المكتبة العربية التي خلت من كتاب يحمل هذا العنوان أو يقترب منه.

وجبران هو كاتب عبقري، اتسمت أفكاره بالشمولية والمساواة والحرية والعدالة ووحدة الاديان والسلام بين البشر.

وجبران هو صاحب أسلوب راقٍ ومفردات بديعة ذات إيقاع رومانسي فريد.

تقول الأديبة سلمى الخضراء الجيوسي في تقديمها لكتاب: جبران خليل جبران- حياته وأعماله: "إن جبران لا يزال يحيا، يحرك، ويهز، في حقل الادب العربي الذي يتجدد ويثري باطراد".

وأتركك عزيزي القارئ لتغوص في أعماق هذا الكتاب؛ علك تعثر على ما بداخله من لآلئ بيانية ومعان سامية.

والله من وراء القصد

وهو الهادي إلى سواء السبيل،

أ/ أحمد حسين حافظ

من رسائل جبران إلى ماري هاسكل

- نحن الباحثون عن الجوهر، المستوحشون الذين استحالت عــزلتهم إلى بستان، ماذا تبقى لنا في الحياة إلا الجوع والظمأ؟ ألم تضــق نفوسنا بالواقعية ... بالإدراك عن طريق افتتاننا بالحقيقة؟ وهل في وسعنا أن نلتفت إلى الوجوه الشاحبة للأشياء الميتة؟

- الموتى : أين هم الآن؟ أين؟

أهم في مكان مجهول؟ أهم مع بعضهم مجتمعون؟

أهم يستعيدون ذكريات الماضي الذي درج في أكفانه؟

أهم في مكان قريب من دنيانا أم في مكان ناء قصي؟

أعرف يا حبيبتي أنهم يحيون، يحيون الحياة الباقية التي يســودها جمال وقور ... هم أقرب إلى الله منا.

الستر المتألف من سبع طيات لم يعد يحجب الحقيقة عن بصيرتهم ... المراوغة انتهت، مخادعة الروح زالت، أشعر بكــل هــذا ... ورغم هذا فالنفس شجوى.

- لو تسنى لي أن أفتح كل عام زاوية جديدة في قلب إنســان، فــلا أكون هدرت، ولا أكون عشت بلا غاية وبلا هدف.

obeikandi.com

- ما أروع الآخرة يا ماري متى استطعنا أن نخلف الـــدنيا وراءنـــا، ونطلب الدنيا الحقيقية .. دنيا الحياة الأبدية!

- أشعر أن الله هو القدرة المثالية التي أثبتت بساطتها ونقاءها.

obeikandl.com

سيرة موجزة لحياة الأديب

جبران خليل جبران

هو جبران بن خليل بن ميشيل بن سعيد جبران، ولد في بلـدة بشّرَى بلبنان في السادس من يناير عام ١٨٨٣م.

أما والدته فهي كاملة ابنة الخوري اسطفان بن عبـد القـادر رحمة، تزوجت من ابن عمها حنا بن عبد السلام رحمة، وأنجبت منه ولداً واحداً هو بطرس، ثم هاجر زوجها إلى البرازيل، وتوفى هنـاك تاركاً زوجته وابنه في بشّرَى. ثم تزوجت من خليل والـد جبـران، وأنجبت منه ولدها الثاني جبران ثم ابنتين هما ماريانا وسلطانة.

كان والد جبران مكلفاً بجباية الرسوم على الماشية في جـرود شمالي لبنان، لكنه كان مقامراً، متقلب المزاج، يزدري العمل الشـاق، ووصفه جبران بأنه كان شديد التغطرس، ولم يكن شخصاً محباً! كان خليل يمتلك بستاناً للجوز، لكنه بدد ما كان يتكسبه منه علـى مائـدة القمار. ولذا فقد افتقدت أسرة جبران للأمان والحب، بيد أن الأم رغـم ثقافتها المحدودة كانت تتسم بإرادة وهمة قويتين ساعدتاها على تـدبير شئون المنزل ورعاية أولادها الاربعة، وقد كان لها تأثيرا بليغ علـى جبران ونشأته وتوجيهه في الحياة.

كان جبران منذ نعومة أظافره ميالاً للخيال الرومانسي، ولـذا انصرف إلى التمتع بالطبيعة الخلابة التي ميزت بلدته.

التحق جبران في عامه الخامس بمدرسة مار إليشاع على أطراف بشّرَى، لكنه لم يتلق بها إلاّ تعليماً هزيلاً، لكن هناك شخص يدين له جبران بفضل تعليمه في ذلك الحين هو الطبيب سليم ضاهر، الذي أدرك وحدة الصبي وتعطشه إلى المعرفة.

ويروي جبران عن سليم ضاهر أنه كان شاعراً، طبيباً، رساماً، مدرساً ... كل شخص عرفه صار مختلفاً. على يد سليم ضاهر تعلم جبران مبادئ اللغة العربية، والتاريخ والجغرافيا.

عندما بلغ جبران الثامنة من عمره قبض على والده واتهم باختلاس ما كان يجبيه من الرسوم، وبعد ثلاث سنوات أدين في القضية، وصودرت جميع ممتلكاته فضاقت سبل العيش في وجه الأسرة واقترحت عائلة الأم عليها السفر إلى أمريكا بوصفه أفضل وسيلة للهرب من عار الزوج، أما الأب فقد واجه الأمر وعرض أن يمنح أسرته بعض المال للقيام بهذه الرحلة.

حملت كاملة أولادها الأربعة إلى مدينة بوسطن بأمريكا، حيث وصلوها يوم الخامس والعشرين من يونيو عام ١٨٩٥، وأقامت الأسرة في حين الصينيين هناك.

وفي بوسطن عملت كاملة وبطرس في التجارة، والابنتان ماريانا وسلطانة في خدمة الجيران، والتحق جبران في سبتمبر عام ١٨٩٥م بمدرسة مجانية تدعى مدرسة كوينسي، وقد ساعده المدرسون على التكيف خلال الشهور الأولى من التحاقه بها، ومن الواضح أن جبران قد وصل في تلك المدرسة إلى المستويات المتوقعة من الإنجاز، واستطاع أن يترك أثراً قوياً في نفس أساتذته من خلال براعة رسومه، فأوصت إحدى معلماته به إلى فريد هولاند داي الثري الذي يشجع الفنانين الناشئين فعطف عليه عطفاً كبيراً.

وفي معرض فريد هولاند داي التقى بالشاعرة جوزفين بيبودي. بدأ جبران يتقن اللغة الإنجليزية بفضل مطالعاته المستمرة، لكنه تشوق لاستكمال دراسته للغته الأم العربية، وبناءً على رغبته أرسلته الأم إلى لبنان عام ١٨٩٨ لدراسة اللغتين العربية والفرنسية، فالتحق بمدرسة الحكمة في بيروت وأمضى بها ثلاث سنوات تبلورت خلالها مواهبه.

وأهم ما طالعه جبران بشغف وأحبه: كليلة ودمنة، والأغاني، ونهج البلاغة، وديوان المتنبي.

وفي نهاية الدراسة قضى جبران الصيف مع والـــده، وتعلـــق بجارته حلا الضاهر، والتي أوحت إليه فيما بعد بطلة روايته الشهيرة الأجنحة المتكسرة والتي أسماها في قصته سلمى كرامة!

وأثناء دراسته بمدرسة الحكمة تلقى خبر وفاة أخته الصـــغرى سلطانة، فعاد إلى أمريكا حزيناً عام ١٩٠١م.

وعندما وصل جبران إلى بوسطن توالت عليـــه المصـــائب، فتوفى أخيه بطرس بمرض السل، ثم توفيت والدته، وبكاهـــا جبـــران بكاءً مُراً. ولم يبق لجبران من معين إلا أخته ماريانا التـــي احترفـــت شغل الإبرة لتساهم في نفقات معيشتها هي وجبران.

وفي عام ١٩٠٤ أقام جبران أول معرض لرسوماته، وزارت المعرض سيدة كان لها فيما بعد الفضل الأكبر فـــي تحقيـــق طمـــوح جبران وهي ماري هاسكل، وكانت مـــاري رفيعـــة الثقافـــة، قويـــة الشخصية، تكبر جبران بعشر سنوات.

وفي نفس العام تعرف على أمين الغريب وكان يصدر جريدة أسبوعية اسمها "المهاجر" فأعجب بطريقة جبران الكتابية ووافق أمين

الغريب على نشر مقالات أسبوعية لجبران، وقد ظهر أول مقال لجبران في الخامس من مارس عام ١٩٠٤ بعنوان "رؤيا". ثم اصدر جبران "الموسيقى" و"عرائس المروج" عام ١٩٠٥، و"الأرواح المتمردة" عام ١٩٠٨.

كانت ماري هاسكل تقدر مواهب جبران فأرسلته إلى باريس عام ١٩٠٨، ليدرس أصول الرسم في معاهدها العالية. وقدمت إليه ماري منحة شهرية. وهناك وفي الحي اللاتيني تعرف جبران بالأدباء والفنانين ومنهم أوجست رودان النحات الشهير، وزار مدن فرنسا وايطاليا وبلجيكا وانجلترا.

وأثناء ذلك وصلته رسالة حملت له نعي والده.

التقى جبران في باريس بيوسف الحويك وأمين الريحاني.

عاد جبران إلى بوسطن في نوفمبر عام ١٩١٠، ثم انتقل للعيش في نيويورك عام ١٩١١.

أنجز جبران روايته "الأجنحة المتكسرة" التي تحكي عن حبه الأول عام ١٩١٢، والتي ساهمت في تعرف الأديبة النابغة "مي زيادة" على جبران وتبادل الرسائل بينهما فكانت فاتحة علاقة حميمية بينهما على الرغم من إقامتها بالقاهرة وإقامته بنيويورك، وقد استمرت بينهما

المراسلات حتى وفاة جبران. في عام ١٩١٤ نشرت مجلة "المهـــاجر" بعض مقالات جبران في كتاب عنوانه "دمعة وابتسامة".

ثم أصدر باكورة أعماله بالإنجليزية وهو كتاب "المجنون" عام ١٩١٨ بمساعدة ماري هاسكل. ثم أصدر جبران قصـــيدته الطويلـــة "المواكب" عام ١٩١٩.

كتب جبران سلسلة مقالات اتسمت بالعنف والهدم في ســـبيل البناء جمعها في كاب أسماه "العواصف" وقد ظهرت طبعته الأولى عن دار الهلال بالقاهرة.

وفي عام ١٩٢٠ أسس بعض أدباء المهجر "الرابطة القلميـــة" وانتخب جبران عميداً لها، وميخائيل نعيمة مستشاراً لها.

وقد لعبت هذه الرابطة دوراً هاماً في انطلاق الأدب المهجري وتميز أدبها بالثورة على القديم.

ظهر كتاب جبران الثاني بالإنجليزية، وهو كتاب "السابق" عام ١٩٢٠ ثم صدر كتاب البدائع والطرائف عام ١٩٢١، وفي عام ١٩٢٣ أصدر جبران كتابه ذائع الصيت "النبي" بالإنجليزية، والذي ترجم إلى العديد من اللغات الأجنبية.

ثم أصدر كتاب "رمل وزَبَد" بالإنجليزية عام ١٩٢٦، ويسوع ابن الإنسان عام ١٩٢٨، ثم "أرباب الأرض" عام ١٩٣١، وكلاهما بالإنجليزية.

توفى جبران في العاشر من أبريل عام ١٩٣١ بعد أن تمكن منه المرض وتلبية لرغبته نقل جثمانه في ٢٣ يوليو من نفس العام على ظهر الباخرة "سينارا"، فوصل بيروت في ٢١ أغسطس عام ١٩٣١، ورقد جبران رقدته الأخيرة في صومعة دير مارسركيس.

وبعد وفاته صدر له "التائه" عام ١٩٣٢ و"حديقة النبي" في نفس العام، وكلاهما بالإنجليزية.

obeikandl.com

مراحل جبران الفكرية والعقائدية

مر جبران بثلاثة مراحل أتسمت كل منها بخصائص أدبية ونفسية ووجدانية مختلفة، ففي المرحلة الأولى من حياته كان جبران يطلق لنفسه العنان لتعبر عن ذاتها أصدق تعبير، وإذا استعرضنا الموضوعات التي كانت تشغله وجدناها تنبع من صميم حياته وبيئته، يعرضها علينا بصفاء ووضوح كما أحسها وعاشها لا يشوبها أي تعقيد، ولا يحاول أن يتعمق المشاكل ولا أن ينفذ إلى جذورها ليجد لها الحلول. بل يلم بها إلماماً يسيراً في أماكن متفرقة من كتبه ومقالاته دون تركيز أو استقصاء.

في هذه المرحلة لم تكن قضية وجود الإنسان تشغله بقدر ما كان يشغل نفسه بالمشاكل التي تواجه الإنسان في حياته اليومية: كالغنى والفقر، والعدل والظلم، والحرية والعبودية، والفضيلة والرذيلة.

ولم يفكر في قضايا الكون والوجود الميتافيزيقية إلا نادراً، لأنه كان يؤمن إيماناً قلبياً عميقاً عن طريق الدين، ولا يرى في قضية الوجود موضعاً للنقاش أو الشك. ومن ناحية أخرى فإنه لم يكن قد وصل إلى المستوى الفكري أو الثقافي الذي يحمله على التطرق لمثل تلك القضايا.

فالبساطة والوضوح وعدم التعمق أو الاستقصاء خصائص ميزت موضوعاته وطبعت المشاكل التي كان يطرحها علينا في هذه المرحلة.

وأهم الكتب التي أبرزت مشاكله في هذه المرحلة: عرائس المروج، الأرواح المتمردة، الأجنحة المتكسرة، دمعة وابتسامة.

وكانت مشكلة الغنى والفقر تلح على ذهنه إلحاحاً غريباً وتبرز بوضوح في كتبه جميعاً لهذه المرحلة، وقد حملنا اهتمامه بهذه المشكلة على متابعة حياته وتقصى جوانبها، فوجدنا أن هذه المشكلة تطغى على حياته التعسة في تلك الفترة. فقد عاش في كنف أب فقير محدود الدخل في لبنان وتخطف الموت أخته وأخاه وأمه في تواريخ متقاربة. بسبب الفقر وسوء التغذية. وأمضى مع أخته مريانا أياماً ضنكة كئيبة في بوسطن.

وجبران لم ينظر إلى المشكلة نظرة واقعية مادية كالاشتراكيين أو الشيوعيين، فلم يتطرق إليها على أنها صراع بين الطبقة الرأسمالية الإقطاعية وبين الطبقة الفقيرة الضعيفة. لأنه حتى ذلك الحين كان يؤمن بالمحبة ويكره العنف ولا يعرف معنى الصراع الطبقي. ولكنه كان يدافع عن حقوق الفلاحين التي يراها تغتصب أمام عينه، ويدفع عنهم الظلم الذي يراه واقعاً بهم كل يوم.

كل ذلك بوحي من ضميره وإدراكه السليم لمعنى العدالة، من غير أن ينغمس في فهم علمي للاشتراكية ومذاهبها وأشكالها. فالاشتراكية كانت مزدهرة أيام جبران. ولعلها لم تكن تجاوز الشكل النظري إلى التطبيق العملي. ولكن جبران عاصر الثورة الشيوعية في روسيا في المرحلتين الثانية والثالثة، وراقب عن كثب التطبيق العملي للاشتراكية. ومع ذلك فقد خلت كتبه جميعاً من ذكر للاشتراكية أو شرح لواحدة من نظرياتها. ولعل هناك فرقاً جوهرياً بين الفكر الاشتراكي وفكر جبران. فالاشتراكية تقوم على فكرة الصراع الطبقي. الصراع بن الإقطاعيين والرأسماليين من جهة، وبين الفلاحين والعمال من جهة أخرى، أولئك الذين يحصلون بأموالهم ونفوذهم على كل شيء. وهؤلاء الذين يكدون ويجتهدون ولا يحصلون على شيء. ونتيجة لهذه المصالح المادية المتضاربة بين الفريقين تتسع هوة الخلاف المادي، وتتعارض المصالح والمطالب المادية وتقف كل طبقة لتدافع عن حقوقها ومكاسبها، ويفترض دعاة الاشتراكية أن التحاماً دموياً لابد أن يقوم في نهاية الأمر تصفى فيه الطبقة الكادحة الطبقة الرأسمالية الإقطاعية المستغلة وتستأصل شأفتها، ثم تقيم على أنقاض المجتمع السابق مجتمعاً تتكافأ فيه الفرص وتسوده العدالة الاجتماعية والرفاهية المادية. وفكرة الصراع الدموي لا تلائم مزاج جبران ولم

تخطر له على بال. لأنه كان يؤمن بالسلام والمحبة التي ترفرف على الجميع.

صحيح أنه آمن بالصراع في المرحلة الثانية من حياته الأدبية والفكرية، ولكنه إيمان يتخذ موقفه إلى جانب الفئة القوية ضد الفئة الضعيفة، لأنه كان يدعو إلى تصفية الضعف والضعفاء.

وكانت آراء جبران في تلك المرحلة ضد العنف وضد الحرب وسفك الدماء فالعنف ليس وسيلة إلى السلام والدم لا يورث غير الدم، والسلام لا يوقع بالدماء ولكنه تمليه عقول ناضجة متعقلة تدرس المشاكل وتقدم لها الحلول الملائمة.

تأثر جبران بالرومانسية في نظرته إلى علاقة الفرد بالمجتمع. فالفرد عند الرومانسيين ضحية "معذور فيما يرتكب من آثام. لأنه ضحية القدر أو ضحية نظم المجتمع القاسية"(١).

ورأي جبران في المجتمع وتقاليده رأي مظلم قاس، فهو ثائر على تقاليده الاجتماعية ونظمه التشريعية وأوضاعه الاقتصادية وآثاره الجائرة على الأفراد ويطالب بحرية لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود. وقد انبثقت آراؤه التحريرية من طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية

(١) د. محمد غنيمي هلال، الرومانسية، ص ١٠٠.

المختلفة التي كانت تسود البلاد في ذلك الحين، فالبلاد واقعة تحت سيطرة الحكم العثماني الجائر المتسلط على الأموال والأرواح، والعادات التقليدية البائدة سائدة، والتربية كانت تقوم على الكبت والطغيان والجمود يطبع الحياة العقلية والعلمية والأدبية بطابعه، والتخلف يقود البلاد من جهل إلى جهل، فكان من الطبيعي أن يهاجم جبران هذا المجتمع، وأن يدعو إلى التحرر من قيوده ونبذ تقاليده.

ولعله عقد مقارنه أثناء تجواله في البلاد الأوروبية والأمريكية بين ما كانت عليه بلاده من كبت وتخلف ورجعية، وبين ما تتمتع به تلك البلاد من تقدم في جميع مجالات الفكر والعلم والأدب، وأدرك بعقله أن أصل هذا التقدم يرجع إلى الحرية الواسعة التي تمارس في الغرب وتحظر في الشرق، فتغنى بالحرية ومجدها في جميع كتبه، ورفعها إلى مرتبة العبادة والتقديس، ودعا إلى الحرية المطلقة بجميع أشكالها، وحث على التحرر من جميع القيود التي تحد من حرية المرء وتقيد تصرفاته.

طالب بحرية العبادة حتى لا يتقيد بالكهان ونزواتهم واستغلالهم واحتكارهم تفسير الإنجيل، وتغنى بانعتاق الروح من نوازعها الأرضية تلك النوازع التي تجعل الإنسان أسير شهواته وغرائزه ونادى بحرية الأديب في اختيار الأسلوب الذي يلائمه دون التقيد

بالأساليب القديمة الموروثة. وطالب أن يكون للإنسان رأي في الحياة التي يحياها، والفتاة التي يجب أن يكون لها الرأي الأول في اختيار زوجها. وأن يكون للفتى مطلق الحرية في ممارسة حياته بالشكل الذي يراه مناسباً وإن تعثرت خطواته، لأنه يرى أن الصواب لا يدرك إلى عن طريق التجربة والخطأ. لهذا أختلط عنده مفهوم الخير والشر والفضيلة والرذيلة نتيجة لإفراطه في اعتناق مبدأ الحرية المطلقة، وراح يصور بعض الشخصيات التي تمارس ألواناً من الرذيلة ويعدهم أبطالاً وشهداء المجتمع والتقاليد التي لا يستطيع المرء دفعها ولا فكاكاً من نيرها. يمثل الدين علاقة الإنسان بخالقة، ويؤثر في فهم الإنسان لمختلف مظاهر الكون فتفسر تفسيراً تعتمده الكتب المقدسة.

وبطبيعة الحال فإن الذي يؤمن بالله يرجع إليه في مختلف قضايا الكون وطلاسمه، أم الملحد فلا يؤمن بالقلب طريقاً إلى الإيمان، فعن طريق العقل والتجربة يريد أن يعرف كل شيء، ويعلل مظاهر الكون المختلفة. والمتدينون المؤمنون بوجود إله لا يرهقون أفكارهم بقضايا الوجود، ولا تخطر ببالهم تلك التعقيدات المتصلة بقضاياه، لأنه يقفون في هذا الكون موقف المسلم لله المؤمن به المستسلم لقضائه، المدرك لعلمه وحكمته، فتظل نفوسهم هادئه وقلوبهم وادعة مطمئنة.

كذلك كان جبران، مؤمناً بالله، عميق الإحساس بتلك الحكمة السرمدية التي تدير شئون الكون، معجباً بعظمتها وقوتها وإبداعها. مستسلما لقضائها. ولا شك أن نشأته المتدينة في بيئة متدينة، كان لها أكبر الأثر في إيمانه بالله. فأمه وهي ابنه أحد الرهبان غرست في نفسه البذور الأولى للمسيحية من محبة وتسامح وسلام وتعفف عن الدنايا وقناعة بالمقسوم، وعلى مقاعد مدرسة الحكمة تلقى الكثير من الدروس المسيحية ومارس عملياً طقوسها الدينية. ومطالعاته المستمرة في العهدين القديم والجديد جعلته يدرك: "الروح الكلية الأزلية الأبدية المملؤة بالجمال والمحبة"(٢).

وإذا استعرضنا أقوال جبران في (الله) نجد أنه يدرك معنى الألوهية وصفاتها إدراكاً سليماً لا غبار عليه. يقول: "هو ضمير كلي سرمدي، أحد، له بدء وليس له نهاية، وليه له فوق وليس له تحت، وليس له حد، وليس له جهات"(٣).

".. من وراء كل شيء قوة هي كل معرفة وكل رحمة"(٤).

---

(٢) جبران خليل جبران، الأجنحة المتكسرة، ص ٥٥.

(٣) جبران خليل جبران: البدائع والطرائف، إرم ذات العماد ص ٨١.

(٤) الأرواح المتمردة، ص ٨٨.

فلم يكن يخامره أدنى شك في وجود الله وقدرته وحكمته ورحمته، كان يشعر بوجوده من غير أن يعكر طمأنينة قلبه بأسئلة كثيرة عن الوجود وأسبابه وغايته ونهايته. وكان يؤمن عن طريق القلب بأن الله خالق كل شيء، وإليه مصير كل شيء. فقضايا الخلق والفناء والآخرة والروح لم تعكر صفو إيمانه، لأنه كان يردها جميعاً إلى الله ويستريح. وهو يقف من الله موقف المخلوق من الخالق. والضعيف من القوي، والعاجز من القادر: "نحن البشر، نحن الذرات المرتعشة في خلاء لا حد له ولا مدى. نحن لا نستطيع سوى الامتثال والخضوع".

ويعرض بأولئك الذين يريدون أن يدركوا حقيقة العالم عن طريق الفكر: "أنت تريد أيها البشري أن ترى هذا العالم بعين إله، وتريد أن تفقه مكنونات العالم الآتي بفكرة بشرية، وهذا منتهى الحماقة".

ولا شك أن بعض الأسئلة الحيرى كانت تدور في ذهنه في تلك المرحلة، كأن يتساءل: "من أنا". أو يعجب ويتألم لتلك الكوارث الطبيعية التي تسوقها قوى خفية فتصيب بها البشرية، ويود لو عرف الحكمة من وجودها. ولكنه لا يلبث أن يقنع نفسه أن من الأجدى له لو

بقى جاهلاً أسرار الحياة لأن الله وحده هو الذي يعلم ما أودعه في الحياة من غموض[٥].

ومشكلة الخلق أو الوجود لم تحير جبران، فهو مسلم أن الله خلق كل شيء من لا شيء، فقال له: "كن" فكان، ونفخ من روحه في الطين فخلق الإنسان[٦]. والله أيضاً خالق الأرض والسماء والكواكب والبحار والأنهار وسائر المخلوقات، يسيرها بأمره، ويتعلق مصيرها بإرادته، وترتبط به في نظام كامل الدقة بديع التكوين.

".. فأرى البرية بكل ما فيها من الجمال الرهيب والسكينة المتكلمة والتلول الباسقة والأودية المنخفضة والأشجار النامية والأعشاب المتمايلة والأزهار المعطرة والأنهار المترنمة، والأطيار المغردة، ثم أنظر إلى ما وراء البرية فأرى البحر بكل ما في أعماقه من الغرائب والعجائب والمدافن والأسرار، وما على سطحه من الأمواج المزبدة الغضوبة ... والأبخرة المتصاعدة المتبددة المتساقطة، ثم أنظر متأملاً بما وراء البحر فأرى الفضاء المتناهي بكل ما فيه من العوالم السابحة والكواكب اللامعة والشموس والأقمار، والسيارات

---

(٥) عدنان يوسف سكيك: النزعة الإنسانية عند جبران، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠، ص ١٠٩.

(٦) جبران خليل جبران، دمعة وابتسامة، ص ٦٨.

obeikandl.com

والثوابت وما بينهما من التدافع والتجاذب والتنازع والتحول. المتماسكة بناموس لا حد له ولا مدى، الخاضعة لشروع كلي ليس لبدئه ابتداء ولا لنهايته نهاية"[٧] وهو متأثر إلى حد بعيد بآراء الفلاسفة المسلمين في (الله) وبمذهب "أمرسن" في (الطبيعة)، فالأديب الأمريكي أمرسن يرى أن الإنسان يمكن أن يدرك عظمة الله في أي من مخلوقاته، فالبحار والأشجار والرياح وكل ما في الطبيعة من مخلوقات تحتوي على جزء من تلك الروح الكلية التي تسيطر على العالم وتحركه، لذلك دأب أمرسن على دعوة الناس للاتصال بالطبيعة واستلهام ما توحيه من معرفة الحق والخير والجمال، ونوه بما يستفيده الإنسان منها، وأهم هذه الفوائد: الاعتماد على النفس.

ونظرة جبران إلى الموت لا تختلف عن نظرته إلى الخلق أو الحياة، فإذا كان الله سبحانه هو خالق الحياة، فهو أيضاً مقدر الموت على عباده: "في سكينة الليل، هبط الموت من لدن الله نحو المدينة النائمة".

وجبران لا يتذمر من الموت، ولا يرى أنه هادم اللذات ولا يتسائل عن علة الحياة أو الموت، وإنما هو يستسلم للموت كنهاية طبيعية للحياة، ويطلبه في كثير من الأحيان: "تعالى أيتها المنية الجميلة

(٧) جبران خليل جبران، دمعة وابتسامة، مرجع سابق ص ٧٥.

فقد اشتاقت نفسي. اقتربي وحلي قيود المادة فقد تعبت من جرها".
ويرى في الموت جمالاً لا يضاهيه جمال الحياة.

أما البعث فمن تمام إيمانه بالله وبالحياة والأخرى بعد الموت حيث يكون الحساب والثواب والعقاب، والصورة التي ترتسم في مخيلته عن الآخرة صورة بسيطة شاعرية غير معقدة:

"هناك في العالم الآتي، سنرى جميع تموجات مشاعرنا واهتزازات قلوبنا، وهناك ندرك كنه ألوهيتنا التي نحتقرها الآن مدفوعين بعوامل القنوط، والضلال الذي ندعوه اليوم ضعفاً سيظهر في الغد كحلقة كيانها واجب لتكملة حياة ابن آدم. الأتعاب التي لا نكافأ عليها الآن ستحيا معنا وتزيح مجدنا، الأرزاء التي نتحملها ستكون إكليلاً لفخرنا".

هكذا كان جبران يمنى نفسه بالأماني العذبة في الآخرة، تماماً كما يفعل الصابرون المحرومون القانعون من متاع الدنيا بالحطام، فيصبر نفسه ويمنيها بوعود الآخرة دون أن يخالجه أدنى شك في هذه الوعود.

وصورة (عيسى) عليه السلام في نفسه لهذه المرحلة هي صورة المؤمن المصدق بعيسى نبياً من عند الله، له تعاليم غاية في

السماحة والمحبة والعدل، واقرب القيم التي جاء بها عيسى إلى نفسه هي المحبة والسلام. فالمحبة هي أنشودته التي لا يمل من ترديدها وتكرارها في جميع المراحل وفي جميع كتبه. بها يحل مشاكل الأرض ومشاكل الإنسان، وبها يداوي قلوب الأغنياء القاسية ويواسي نفوس الفقراء ويصبر بطونهم الخاوية، وكل ما على الأرض يزول إلا المحبة، فإنها باقية إلى الأبد: "لا تحفظ الأبدية إلاّ المحبة لأنها مثلها". والسلام يريده أن يكون شاملاً يعم الأرض ومن عليها، كالسلام الذي نادى به عيسى عليه السلام.

وهو في سبيل السلام لا يقيم وزناً لدعاوي الوطن أو الوطنية التي يتنادى البشر باسمها إلى الحرب: "ما هذه الوطنية التي من أجل أسباب صغيرة تدعو إلى حرب تخرب البلاد، ما هذا الواجب المحتوم على هذا القروي المسكين الذي لا يحفل به ابن الشرف الموروث؟ إذا كان الواجب ينفي السلم من بين الأمم والوطنية تزعج سكينة حياة الإنسان، فسلام على الواجب والوطنية؟"(٨).

هذه القيم السامية التي نادى بها المسيح عليه السلام، أحب جبران المسيح وأعجب به إعجاباً لم يفارقه حتى نهاية حياته، وإن اختلفت دواعي هذا الإعجاب في مراحل حياته المختلفة، في هذه

(٨) جبران خليل جبران، دمعة وابتسامة، بنات البحر، ص ١٥.

المرحلة يؤمن به رسولاً مبعوثاً من عند الله، ليأخذ بيد الناس إلى طريق الهداية والمحبة والخير جاء إلى هذا العالم ليتألم ويتعذب من أجل خلاص الآخرين وسعادتهم في الدنيا والآخرة. وشتات بين هذه النظرية الوديعة للمسيح في هذه المرحلة ونظرته إليه في المرحلة الثانية فقد رأى المسيح رجلاً قوياً جباراً، غير ضعيف ولا متخاذل، يواجه المشاق ويحتمل الشدائد ويصمد أمام العواصف، فهو معجب به كرجل قوي مكافح، يقف بصلابة في وجه أعدائه، مدافعاً عن مثله وتعاليمه حتى الموت. ولم يكن جبران في أي يوم من حياته ولا في أي كتاب من كتاباته على وئام مع الكهان ورجال الدين المسيحيين.

فقد هاجم بعنف، وألصق بهم تهم القسوة والاستغلال والمراءاة والخديعة ومن يقرأ قضية: يوحنا المجنون، خليل الكافر يخرج بمحصول وافر من تلك التهم والتهجم العنيف.

ولا ندري أسباب تلك النقمة إلى أن يكون قد تأثر بالثوريين من أوروبا الذين هاجموا الكنيسة ورجالها بعنف أمثال: فولتير، جان جاك روسو وغيرهما، والثابت أيضاً أنه تأثر بكتابات أمرسن الذي يحمل حملة مركزة على رجال الدين ويسفه طرقهم في التبشير. وقد ظل على رأيه في الكنيسة ورجالها حتى نهاية حياته. ولا يفوتنا أن نذكر في هذه المرحلة أول انحراف طرأ على عقيدته المسيحية، ونعنى

به "عقيدة التناسخ أو التقمص" تلك العقيدة التي لازمته حتى آخر أيامه. فالمعروف أن هذه العقيدة لا تدخل ضمن تعاليم المسيحية، ولكن جبران عاش في بوسطن مدة طويلة من شبابه وكانت في ذلك الحين ملتقى ثقافات دينية واسعة بفضل مذهب "أمرسن" المتسامي في الدين والأدب والفلسفة، وقد ارتضى أصحاب هذا المذهب بعض آراء البوذية أو طالع بعض الكتب التي تتحدث عن البوذية وتعاليمها، فصادفت هوى في نفسه، فآمن بالتقمص، وظل على ولائه لهذه العقيدة طول عمره. ولابد أن مشكلة الروح واختفاءها من جسد الإنسان قد جيرته كما تحير حتى الآن الكثيرين من المفكرين والعلماء، فهي تترك جسد الإنسان بصورة غامضة، لا يعرف المرء كيف تغادره ولا أين تستقر بعد ذلك.

ولعل عقيدة التناسخ أجابت عما يجول بخاطره من أسئلة حول الروح، فآمن بها، واعتقد بها اعتقاداً راسخاً، ويبدو أثرها واضحاً في كتاباته في المراحل الثالث. وقصة "رماد الأجيال والنار الخالدة" ليست إلى برهاناً على إيمانه بهذه العقيدة.

وجبران إذ يؤمن بالتناسخ في هذه المرحلة لا يتخلى عن إيمانه بالله، فهو يعلل بقاء الروح وتنقلها في إطار من الإيمان بالله: "فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد".

ولكنه لا يلبث أن يأخذ في المرحلة الثانية بتعليلات نيتشه الفلسفية التي تؤمن بالتناسخ بعيداً عن افتراض وجود إله.

ومن الطريف أنه يستشهد بالقرآن الكريم ليدلل على عقيدة التناسخ، ويسئ فهم الآية الكريمة: "وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم حييكم ثم إليه ترجعون"[٩]. حيث يظنها تعني التناسخ، وهي تعني عكس ما ذهب إليه، فالآية الكريمة تشهد بقدرة الله وعظمته الذي خلق الإنسان من طين ميت ثم يميته فيعود تراباً، ثم يحييه يوم القيامة مرة أخرى، وهي بهذا المعنى تبتعد كثيراً عما ذهب إليه جبران من مرماها. ومهما يكن من شيء فإن هذه العقيدة كانت الخطوة الأولى في طريق جبران نحو المعرفة التي تنبع من تجاربه وخبراته الذاتية سواء عن طريق المطالعة، أو طريق ممارسته للحياة.

لقد انطلق جبران وسار أولى خطواته على سبيل النزعة الإنسانية عندما بدأ يشعر بالكبت الاجتماعي والظلم السياسي والاستغلال الاقتصادي وقد قامت النزعة الإنسانية في العصور الوسطى لتقاوم الجمود العقلي ولتناوئ أدعياء العلم من الجهلاء، ولتنشر روحاً من التحرر والاستنارة في أرجاء أوروبا. وطغيان رجال

(٩) جبران خليل جبران، دمعة وابتسامة، نشيد الإنسان، ص ٩٣. القران الكريم، سورة البقرة، آية ٢٨.

الدين كان يمثل الكبت الروحي والاستغلال المادي والتحكم في أبشع صورة، فمن الطبيعي أن يثور أصحاب النزعة الإنسانية وهم دعاة تحرر على الدين ورجالاته، وكان لابد لهم أن يتطرفوا نتيجة لرد الفعل العنيف في نفوسهم ضد رجال الدين، فسحب بعضهم اعترافه بالدين، وأنكروا وجود الله ودانوا بدين التجربة الإنسانية فحلت محل الدين، لا يعترف أحدهم بخير أو شر إلا إذا مارس تجربته بنفسه فهاموا على وجوههم ينشدون التجربة الإنسانية الواسعة. ولقد أحس جبران بوطأة تحكم رجال الدين في المجتمع الفقير وسوء استغلالهم له، فوجه إليهم الاتهامات، وعَدَّد جرائمهم وفظائعهم ضد المجتمع، ولكنه لم يستطع أن يبتعد كلياً عن تبعات الدين في هذه المرحلة. فقد ظل على إيمانه بالله وإعجابه بعيسي عليه السلام. ولم يربط بين الدين ورجاله، لأن الدعوة المسيحية الأصلية التي تدعو إلى السلام والإخاء والمحبة كانت هي التي تستهويه إبان تلك المرحلة وقد وضحت خصائصها في عديد من كتاباته.

تختلف المرحلة الثانية عن سابقتها اختلافاً جوهرياً من عدة وجوه فالشخصية المستسلمة لله المؤمنة به، الصابرة على الآلام، الراضية بما قُسم لها، الباكية على آلام الناس وأحزانهم ... هذه الشخصية استحالت إلى شخصية أخرى على النقيض من الأولى فحل الشك محل اليقين، والتمرد محل الاستسلام، والدعوة إلى القوة مكان

الدعوة إلى المحبة والسلام، والاستهزاء بالضعيف والسخرية منه عوضاً عن الحزن عليه والبكاء والتألم من أجله.

وقد تطلع جبران إلى الوراء، إلى سابق أعماله فلم يجد غير الضعف والتخاذل والتهرب من الحياة بالموت، فصغر في عين نفسه، واستنكف من سابق أعماله. فكتب إلى صديقته "مي زيادة" رسالة يقول فيها: "... لا تقولي لي أنشدت كثيراً وما أنشدته كان حسناً. لا تذكري أعمالي الماضية لأن ذكرها يؤلمني، لأن تفاهتها تحول دمي إلى نار محرقة"(١٠).

ولم يعد جبران مراهقاً يؤمن بالحب ويسهر الليل يغالب شوقه، بل أصبح إنساناً آخر متبرماً بالحياة، متجهماً عابس الوجه، لا يرى من الحياة غير الآثام والشرور، ولا يبصر في الناس غير الخبث والخداع وزيف قيمهم ومعتقداتهم وفسادها.

ولعلنا ندرك التفاوت في حالته النفسية عند المقارنة بين مقالة صوت "الشاعر"(١١) في المرحلة الأولى وبين مقالة "الشاعر"(١٢) في المرحلة الثانية. فهو في الأولى صابر مستسلم يكره العنف ويدعو إلى

---

(١٠) رسائل جبران، جميل جبر، ص ٩٢.

(١١) دمعة وابتسامة.

(١٢) العواصف.

المحبة ويؤمن بالله. وهو في الثانية متذمر حائر لا يفهم الناس ولا يفهمونه، يحاول أن يدرك أسرار الحياة ويتطلع إلى خفاياها فلا يستطيع. فبعد أن كان ينظر إلى الحياة نظرة شاعر يحسها ولا يفكر فيها، يتأملها ويعبر عما يراه فيها من سعادة أو شقاء، أخذ إحساسه بالحياة يخالطه شيء من التفكير والتساؤل العميق الذي يريد أن يستكشف ما وراء المظاهر من أسرار فيتسائل من أنا؟ وكيف جئت إلى الوجود؟ وما علّة الموت والحياة؟ وما سر الوجود؟ ..

وعلى هذا فقد طرأ تغير جوهري على شخصية جبران وأدبه وفكره في هذه المرحلة، ولعل ثقافته ومطالعاته المستمرة هي السبب في ذلك التحول، فقد وقع في هذه المرحلة تحت مؤثرين ثقافيين أحدهما فلسفي فكري من جراء اطلاعه على فلسفة الألماني نيتشه، والثاني أدبي لاهوتي رومانسي هو مذهب "أمرسن" وأتباعه، وكان قد تأثر به تأثراً طفيفاً في المرحلة الأولى، وهو في هذه المرحلة يقوم بدراسة هذا المذهب يتعمق، ويبدو تأثره واضحاً في قصيدته المواكب.

وقد وجدت هذه الفلسفة الثائرة المحطمة للقيم الإنسانية المتعارف عليها، صدى وتجاوباً في نفس جبران، فأعجب بفلسفة نيتشه، حتى أنه قد وضعه إلى جانب المسيح (عليه السلام) كابنين للحرية! وقد تشرب هذه الفلسفة وكتب قصصه ومقالاته متأثراً بها.

وإذا كانت ثورته في المرحلة الأولى ثورة رومانسية حالمة، ففي هذه المرحلة نرى أثر فلسفة نيتشه بارزاً في آرائه وأفكاره، فاصطبغا بطابع الثورية. فإرادة الحياة وإرادة القوة تبرز في معظم كتاباته ومقالاته في كتابه "العواصف"، وفيه يصب غضبه على بني أمه لأنهم يهابون النضال، ويكرهون المجد والعظمة، ولم يعد ضعفهم يثير شفقته عليهم بل يحرك في نفسه الازدراء والاشمئزاز[١٣]!

ويسوع الذي أعجب به وبتعاليمه ومثله، ولا يريد أن يتخلى عن إعجابه به فيحيل ضعفه إلى قوة، ولين جانبه إلى ثورة وتمرداً[١٤].

ولم يعد جبران يؤمن بالسلام ولا يزعجه القتل أو سفك الدماء لأنه يرى رأي نيتشه أن الحياة كفاح ونضال، والبقاء للأقوى ولابد من وجود هذا الصراع الذي يفنى فيه الضعفاء[١٥]!

وكما سبق أن أوضحنا فإن جبران تأثر بمذهب أمرسن المعروف "بالتسامي"، ومفاهيمه عن الحياة والحق والخير ويبدو ذلك الاتجاه جلياً في كتابات جبران أثناء هذه المرحلة.

---

(١٣) العواصف، يا بني أمي، ص ٤٤.

(١٤) العواصف، يسوع المصلوب، ص ٢٥.

(١٥) العواصف، الجبابرة، ص ٩٤ : ٩٦.

تذكر الأديبة الأمريكية: بربارة يونج" عن جبران، في كتابها هذا الرجل من لبنان: إن وحدة الإنسان والطبيعة في الصخر، في الغيوم، في الشجر، في النهر والشلال، تتضح أبداً بشكل ظاهر في جميع إنتاج قلمه وريشته.

وهذا الاعتقاد هو أحد مبادئ أمرسن وجزء هام من مذهبه وهذا يجعلنا ندرك مدى تأثر جبران بفكر أمرسن ومذهبه حيث يعتقد أن هناك جوهراً كلياً يسيطر على الطبيعة، يتجلى في كل جزء من أجزائها، والإنسان بطبيعة الحال جزء من الطبيعة وهو يحتوي في داخله على جزء من تلك القوة التي تهيمن على الطبيعة وما عليه إلا أن يكتشف هذه القوة الفطرية والحكمة الكامنة فيه، وعلى ذلك فالإنسان يستطيع أن يزن الأمور بميزان عقله وحكمته، وأن يضع الأمور في نصابها لأن نفسه وفطرته تهديه إلى طريق الصواب وتقيه الزلل، وهي فكرة إلى حد ما شبيهة بما ورد في قصة "حي بن يقظان" العربية ولاسيما عند ابن طفيل.

لذلك كان أمرسن وأتباعه يثقون بالإنسان ويدافعون عن حريته في العمل والإبداع والعقيدة.

وقد تسربت هذه المبادئ إلى كتابات جبران عن طريق مطالعاته في الآداب الأمريكية وإقامته في هذه البيئة وبالذات في بوسطن موطن أمرسن!

ولكن كتابات جبران في هذه المرحلة تتسم بطابع علماني لاعتناقه تعاليم نيتشه وداروين، مع عودة بين الحين والآخر إلى إيمانه القديم الذي اتسمت به المرحلة السابقة، ولكن الطابع العلماني يطغى على فكره وكتاباته في هذه المرحلة الوسيطة.

وقصيدة جبران "المواكب" خير دليل على إيمانه بفلسفة الطبيعة التي نادى بها أمرسن وثورو والتي تدعو إلى الرجوع إلى الطبيعة الفطرية، بعيداً عن التكلف والرياء الذي يلازم الحياة المدنية حيث يتساوى العبد بالحر، والضعيف بالقوي لأنهم أمام الطبيعة الأم متساوون، لا يشوب حياتهم خداع المدنية ولا زيفها، ولا يقيمون بينهم ديناً يبشر بالنعيم أو الجحيم، ولا يتفاخرون فيما بينهم بالأمجاد الزائفة، ففي الغالب يدرك الإنسان طبيعة الخير والشر، والجسد والروح، والسعادة والشقاء.

وقد تأثر بهذه النظريات كثير من شعراء المجهر على وجه الخصوص، فها هو مواطنه الشاعر المهجري إلياس أبو شبكة يقول في مقدمة ديوانه "أفاعي الفردوس": وفي الطبيعة أسرار لطيفة لا

يدركها الحس مهما دق، بل يشعر بها إذا قويت النفس، والنفس مهما قويت لا تستطيع قهر الطبيعة لاقتناص سرها اللطيف إلا إذا تجردت من أدران هذا العالم. وهذا مستحيل ... على أن للنفس هنيهات تصفو فيها، فينعكس عليها من الطبيعة جمال محجوب، وهذا الجمال يهتف في النفس أسراراً تُنطق لسان الشاعر الثقيف بمعانٍ شريفة. وعبثاً نحاول معرفة هذه الأسرار، فهي من الغموض واللطف بحيث تدق على أدق حس، ويكفي أن نسمع من هذه الأسرار ما ينطق ألسنتنا ويفتح أذهاننا لمشاهد نراها بأم العين"(١٦).

وقد أخذ جبران شيئاً فشيئاً يتابع دراسة العلاقات الإنسانية والمشكلات التي تواجه علاقة الإنسان بالإنسان، محاولاً أن يجد لكل مشكلة حلاً ملائماً يتفق ومبادئه ومثله في الحياة، متأثراً بالثقافة الغربية أحياناً، أو مستنداً إلى فكره ومزاجه أحياناً أخرى، حتى استطاع في نهاية الأمر أن يقدم لنا حلولاً لبعض المشكلات التي تواجه الإنسان على أسس روحية وفكرية ونفسية، ولكنه لم يصل إلى مستوى النضج إلاّ في المرحلة الثالثة والأخيرة.

على أن تأثره بفلسفة نيتشه من جانب وبمذهب أمرسن من جانب آخر أصابه التشويش وعدم التركيز نتيجة لاختلاط الثقافات مما

(١٦) إلياس أبو شبكة، أفاعي الفردوس، دار الحضارة، بيروت، ط٣، ١٩٦٢.

جعل جبران يكتب في موضوعات مختلفة كالفلسفة والدين والأدب والمجتمع...

كما تتسم هذه المرحلة بتردد جبران بين الشك واليقين في الدين بعد أن تسربت الفلسفة إلى فكره، على نقيض المرحلة الأولى التي كان الإيمان يعمر فيها قلبه، ولذا فقد حاول معرفة كل شيء معرفة عقلية يقينية، لكنه لم يصل إلى ذلك مما زاده حيرة وشكاً واضطراباً.

وفي هذه المرحلة لم تعد العلاقات الاجتماعية المحدودة تستحوذ على اهتمامه، فقد فتحت الفلسفة والثقافة الغربية عينه على آفاق جديدة للتأمل تختلف عن تلك التي عرفها ومارسها في الشرق، ولم يعد مجتمعة الضيق في لبنان شغله الشاغل، بل تحولت أنظاره إلى العالم بأسره، والكون وما فيه من أسرار، والحياة وما فيها من تعقيدات. لكنه لم يستطع أن يضع منهاجاً لما يجب أن تكون عليه العلاقات الإنسانية إلى في مرحلة النضج الأخيرة.

ولم تعد علاقة جبران بالمجتمع تسودها الغيرة والمحبة والدفاع عن حقوق الفقراء والضعفاء كما كان في مرحلته الأولى، فصار الجميع يثيرون قرفه واشمئزازه لتخاذلهم وضعفهم وجبنهم، وقعودهم عن مسايرة ركب الحياة، وعدم وقوفهم في وجه العاصفة. ومما لا شك

فيه أن أفكاره تلك كانت بتأثير مباشر من فلسفة نيتشه فبدا جبران وكأنه يردد كلماته، وعلى سبيل المثال، يقول نيتشه في كتابه: هكذا تكلم ذرادشت: "هناك دعاة يكرزون للموت والأرض مليئة بأولئك الذين ينبغي أن يكرز فيهم للإعراض عن الحياة.

مليئة هي الأرض بالفائضين عن اللزوم، والحياة قد داخلها الفساد بسبب هذه الفائض من الفائضين. لتكن "الحياة الخالدة" طُعماً يستدرجهم إلى الارتحال عن هذه الحياة! ... يودون لو أنهم يموتون، وعلينا أن نقبل بإرادتهم! لنحترس من إيقاظ هؤلاء الموتى ومن تحطيم هذه النعوش المتحركة"(١٧).

ويقول أيضاً: "الحق أقول لكم، إني لأفضل النظر إلى الفاجر على مشهد الأعين المنكسرة لخجلهم وخشوعهم ... جثثاً ارتأوا لأنفسهم أن يحيوا، وسواداً أسدلوا على جثثهم، وإني لأشتم الرائحة الكريهة لغرف الموتى حتى في خطاباتهم"(١٨).

ولم يعد للدين حرمه في نفس جبران في تلك المرحلة فسمح لنفسه بالتطاول عليه والنيل منه، حيث أنه قد تأثر بآراء الفلاسفة

---

(١٧) فردريش نيتشه: هكذا تكلم ذرادشت، ترجمة عن الألمانية على مصباح، ط١، منشورات الجمل، ألمانيا، ٢٠٠٧، ص٩٤.

(١٨) المرجع السابق، ص١٧٨.

والمفكرين الغربيين –ولاسيما نيتشه– الذين جعلوا الدين ضـــرباً مـــن الأوهام التي يجب على الإنسان العاقل أن يطرحها مـــن فكـــره، وأن يتخلص من تبعاتها!

يقول نيتشه عن ذلك "أرأيتم هؤلاء القساوسة، لتمروا بصـــمت من أمامهم ولا تستلوا السيوف وإن كانوا أعداء لي! أعداء ألداء هم : لا شيء يتعطش للانتقام مثل خضوعهم. وكل من يهاجمهم سرعان ما يغدو مدنساً ... يؤلمني حال هؤلاء القساوسة، وأشمئز منهم أيضاً، إلا إن ذلك غدا أمراً هيناً بالنسبة لي منذ أن وجدتني بين البشر.

ومع ذلك تألمت وأتألم لحالهم: سجناء هم بالنسبة لي يحملـــون وسومهم على جلودهم. وذاك الذي يسمونه المخلِّص جعلهم مصـــفدين في القيود: في قيود القيم الكاذبة وأحاديث الأوهام!... أو أنظروا تلـــك الأكواخ التي بناها القساوسة لأنفسهم! كنائس يسمون مغـــاورهم تلـــك التي تعبق بروائح البخور ... من الذي ابتدع هذه الكهـــوف وســـلالم التوبة؟ أليس أولئك الذين كانوا يريدون التستر والذين كانوا يخجلـــون من منظر السماء الصافية؟ ... ثم لم يروا من طريقة أخـــرى لإبـــداء محبتهم لإلههم غير أن يسمّروا الإنسان على الصليب[١٩]!

(١٩) فريدريش نيتشه: هكذا تكلم زرادشت، مرجع سابق، ص١٧٦ : ١٧٨.

كذلك كانت نظرة جبران للدين في تلك المرحلة، حيث مال إلى الاعتقاد بأن الناس هم الذين أقاموه بأيديهم وابتدعوه وقدموا له الضحايا والقرابين! يقول جبران في كتابه "العواصف": "منذ البدء والإنسان يعبد نفسه ولكنه يلقبها بأسماء مختلفة باختلاف ميوله وأمانيه، فتارة يدعوها البعل. وطوراً المشترى وأخرى "الله"[٢٠]!

واعتقد جبران في تلك المرحلة أن الدين في عرف الناس عبارة عن مصلحة قائمة على المنفعة، فهم ينظرون إليه نظرة تجارية خالصة، فبقدر استفادتهم يتمسكون به، لذلك فأحرص الناس عليه هم الكهان لأنهم من دونه لا يساوون شيئاً، ويتضح ذلك جلياً في قصيدته المواكب، حيث يقول:

والدين في الناس حقل ليس يزرعه *** غير الآلي لهم في زرعه وطر
من آمل بنعيم الخلد مبتشر *** ومن جهول يخاف النار تستعر
فالقوم لولا عقاب البعث ما عبدوا *** رباً، ولولا الثواب المرتجي كفروا
كأنما الدين ضرب من متاجرهم *** إن واظبوا ربحوا أو أهملوا خسروا[٢١]

وإذا كان جبران قد نفض عن كاهله تبعات الدين التقليدي وأعباءه، فقد وقع في حيرة اختيار دين جديد لنفسه، لذا فقد بدا حائراً

(٢٠) جبران خليل جبران، الأعمال العربية الكاملة، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠٢، العواصف، حفار القبور، ص٤٣٢.

(٢١) جبران خليل جبران، المواكب، دار العرب للبستاني، القاهرة، ط٢، ١٩٨٦، ص٣٠ : ٣٣.

متردداً منتقلاً بين آراء فكرية ومذاهب لاهوتية عديدة، فقرأ في البوذية والمسيحية والمتصوفة المسلمين والملاحدة، وتأثر بفكر هؤلاء جميعاً. فعن البوذية أخذ التناسخ وأصبح عقيدة له حتى آخر حياته. ورأيه في الصلاة والتنسك قريب من آراء المسلمين، فهو يقرر في كتابه العواصف "لم أطلب الوحدة للصلاة والتنسك، لأن الصلاة، وهي أغنية القلب، تبلغ آذان الله وإن تصاعدت ممزوجة بصياح ألوف الألوف، وأما التنسك، وهو قهر الجسد وإماتة رغائبه، فمسألة لا مكان لها في ديني"(٢٢).

ويكتب في تلك المرحلة أيضاً "إرم ذات العماد" متأثراً بآراء المتصوفة المسلمين، ويطالع المسيحية فيزداد إيمانه بالمحبة وإعجابه بالسيد المسيح، لكن تأثره بالملاحدة وعلى رأسهم نيتشه جعله يقف أمام الكون متشككاً لا يرضى عن إيمانه القديم ويتهيب من التصريح بالإلحاد، مما حدا به للجوء إلى التلميح دون التصريح مع كثرة استخدام الرمز. وظل جبران حائراً لا يصل إلى شيء يقيني، لأن من طبيعة الأمور الميتافيزيقية ألا توصل الإنسان إلى يقين تام كما أنها تبتعد به تدريجياً عن الإيمان الصحيح لكثرة ما يطالع من آراء متناقضة وحجج معقولة لكل رأي. واعتقد جبران أنه لا مبرر للخوف

(٢٢) جبران خليل جبران، العواصف، مرجع سابق ص ٥١١.

من الموت لأنه سيأتي بحياة أخرى أفضل من الحياة الأولى لمن يتشوقون فقط إلى حياة أسمى ويتطلعون إلى السمو والرقي.

ولقد كانت تلك الحيرة أمام الطبيعة وطلاسمها أساساً من أسس التفكير الغربي، والتي لا نجد لها إلاّ أثراً ضئيلاً في التفكير الشرقي، لأن الشرقيون قد وصلوا بدون تفكير أو تدليل إلى أصفى وأنقى صورة دينية عرفها التاريخ فاعتقادهم في قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشيء.

والحقيقة أن الديانات في الشرق ظلت تجيب عن تساؤلات الناس وحيرتهم جيلاً بعد جيل، حتى جاء الإسلام فأتم ما بدأته الديانات السماوية السابقة في الإجابة عما يشغل الناس ويحيرهم.

أما الغربيون فأثر الدين في نفوسهم ضعيف بشكل عام، وهم يحاولون تعليل كل شيء تعليلاً عقلياً مما ترك أثراً عميقاً في أدبهم وفلسفتهم.

وقد سيطر على تفكير الغرب وهم خاطئ منذ منتصف القرن التاسع عشر بأن الإنسان سيتطور إلى إنسان أسمى من الإنسان الحالي وهو ما أطلقوا عليه "السوبرمان" أي الإنسان الخارق للعادة، واعتقدوا أن هذا السوبرمان سوف يتمتع بخصائص جسدية وفكرية أسمى من

التي يتمتع بها الإنسان الحالي، مما يمكنه من تحقيق المعجـزات فـي الأرض والسماء!

وأدرك جبران أن العقيدة المسيحية لا تجيب عن التسـاؤلات التي كانت تشغل فكره في تلك المرحلة إجابات واضحة صريحة، ولذا فقد رفض الدين طريقاً إلى المعرفة، ولجأ إلى الفلسفة العقلية لعله يجد فيها إجابات شافية لأسئلته، فكانت تلك الفلسفات والنظريات تنتقل بـه من غموض إلى غموض آخر فيجد نفسه في نهاية الأمر فـي بدايـة الطريق أمام نفس الأسئلة التي حيرته في البداية!!

وفي المرحلة الأخيرة من حياته لم يكتب جبران باللغة العربية إلا القليل، وقد بدا في هذه المرحلة راضياً بحياته متفائلاً بها، وزالـت نهائياً تلك النظرة التشاؤمية التي كانت تطغى على حياتـه، وتـنعكس على معظم كتاباته. حتى وحدته التي كانت تغمر أيامه ولياليه شـعر فيها بشيء من السعادة، كما أن ظلام الليل يخفي وراءه فجراً جديـداً. ولعل جبران أدرك أن الثورة والنقمة على الحياة لا تجدي نفعاً، وتعود على صاحبها بأوخم العواقب، وأعطب الثمار، وعلى حسـب قولـه" فالحياة جميلة في كل شيء: حتى في العيون التي عميت عـن رؤيـة الجمال".

وتعد تغيرات نظرته في تلك المرحلة إلى قومه من البغض إلى المحبة ومن النقمة والسخط عليهم إلى الرضا عنهم والإعجاب بهم، وأصبح يعفو عن زلاتهم ولا يرى إلاّ محاسنهم وحكمتهم التي ورثها عنهم.

وقد أتخذ جبران من المحبة ديناً، ومن التسامح مذهباً في حياته واعتبرهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما إيمانه بالدين.

ويرى جبران أن دين الإنسان هو حياته اليومية لأن الإنسان لا يستطيع أن يفصل إيمانه عن أعماله، ولا يُقَسِّم ساعات حياته ويقول: هذه لله وهذه لي، فالدين كل لا يتجزأ في سلوك المرء وعمله في المعبد والحقل والمصنع، وفي معرض مقارنته بين المسيحية والإسلام من هذه الناحية يقول جبران "أنا أحترم المسيحية كدين ولكنني لا أستطيع أن أوفق بين المسيحية وأعمال المسيحيين. وهذا هو الفرق بين المسيحية والإسلام. لأن الإسلام يُعلِّم ويُعمل بموجب تعاليمه. أما المسيحية فلا تفعل ذلك"(٢٣).

ويرى جبران أن الصلاة لابد أن تتم بصمت خاشع دون ضجيج لأن الله يعلم حاجتنا من غير أن نطلبها بألسنتنا.

---

(٢٣) جبران خليل جبران، الأعمال الكاملة، مرجع سابق، نصوص خارج المجموعة، بدء الثورة، ص ١٥٧.

أما عن النبي عيسى عليه السلام فلم ينقطع إعجاب جبران به في أية مرحلة من مراحل حياته، وكان في كل مرة يتحدث فيها عنه يرسم له صورة تتمشى والمبادئ والقيم التي يؤمن بها والتي اختلفت بحسب اختلاف مراحله الفكرية التي مر بها. ففي مرحلة الرومانسية رسم له صورة رقيقة شاعرية، مليئة بالمحبة والجمال والروحانية.

وفي المرحلة الوسيطة، مرحلة الإيمان بالقوة، صوره قوياً متمرداً جباراً.

وقد حاول جبران جاهداً أن يقدم لنا عيسى –عليه السلام– بشكل إنسان لا بصورة إله أو ملاك. إنسان يعيش بين الناس يتحدث إليهم ويحس بآلامهم، لا يخالط مبادئه أي تعقيد فلسفي، ولا تتسم حياته بوجود خوارق غير عادية، حتى المعجزات التي رويت عنه يعزوها إلى تعليلات علمية، وهو يرى أن معجزة عيسى الكبرى أنه إنسان علم الناس المحبة والتسامح حتى مع الأعداء، وجبران هو القائل عن المسيح –عليه السلام– "أنه كان إنساناً مثلك ومثلي".

والجدير بالإشارة أن كثيراً من نصائح جبران وتعاليمه في كتابه الشهير "النبي" تحمل في مضمونها تأثراً واضحاً بتعاليم الإسلام في القرآن الكريم وكذا ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الشريفة. فآداب الصدقة والحث عليها، وآداب البيع والشراء

وإتقان العمل تكاد تكون مطابقة تماماً لما جاء في القرآن الكريم، يقول الله عز وجل "يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس"(٢٤).

ويطالب جبران الأغنياء بالبذل والعطاء، لأن الإنسان ليس إلا خازناً للمال، ثم تتداوله الأيدي من بعده.

كما نجد جبران يندد بمن تغرهم الحياة الدنيا فيخسرون الكيل والميزان، ويجمعون من المال فيوعون، ولا يخشون الله، وهذا مطابق لما ورد في كتاب الله العزيز "ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون"(٢٥).

ويذكر جبران الناس بأن الله يعطي الجميع من فضله وكرمه، ولذا نجده يحث الغني ليعطى ولا يخشى أن يتعرض للاحتياج والعوز، لأن ذلك هو العوز نفسه.

وفي الحديث الشريف ما يفيد بأن "الناس في خوف من الفقر في فقر" كما يوضح النبي الكريم "لن تؤمنوا حتى تنفقوا مما تحبونه"

---

(٢٤) سورة البقرة، آية: ٢٦٤.

(٢٥) سورة المطففين، أية ١ : ٤.

ويردد جبران ذلك بقوله "والكريم يعطى مما هو بحاجة إليه لا مما يفيض عن حاجته".

وفي معرض حديثه عن العمل، يطالب جبران الناس بأن يتقنوا أعمالهم ليحسنوا علاقتهم بالله وبالناس، وهو في ذلك متأثراً بقول النبي الكريم عليه الصلاة والسلام "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه". كما يقرر "ما أكل امرؤ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده".

وفي قصة جبران "إرم ذات العماد" الواردة في كتابه "البدائع والطرائف" اتجاه واضح إلى إيمانه بوحدة الوجود، حتى في عقائد الناس.

فقد تخير مادته من القرآن الكريم، واختار بطلته مسلمة من طائفة العلويين تحمل اسم "آمنة" وهو اسم والدة النبي صلى الله عليه وسلم! كما اختار بطل روايته مسيحياً يدعى "نجيب رحمة" واعتقد أنه يمثل جبران نفسه الساعي للتعمق في التصوف الإسلامي وإدراك أسراره، وتذكر الأديبة نادرة جميل السراج عن شخصية آمنة العلوية "ويعتقد الدارسون أن خيال "رابعة العدوية" المتصوفة الكبيرة كان يراود خيال جبران في خلقه لهذه الشخصية"[٢٦].

(٢٦) نادرة جميل السراج: ثلاثة رواد من المهجر، دار المعارف، ١٩٧٣، ص ٣٥.

ومن الملاحظ أن كتاب جبران "البدائع والطرائف" يحتوي على أكثر من صورة لعدد من الشخصيات التاريخية العربيـــة والإســـلامية خطها جبران بقلمه ورسم بعضها بريشته، ولم يُخف جبران إعجابـــه بهم، فعن ابن سينا يقول: "ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس".

كما يصف الشاعر المتصوف عمر بن الفارض بأنه شـــاعراً ربانياً.

ويعقد مقارنة بين فكر الغزالي والقديس أوغسطين، ويصـــرح بأنه قد وجد الغزالي أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها من القـــديس أوغسطينوس!

openkandl.com

شخصيات إسلامية

obeikandl.com

الغزالي

بين الغزالي والقديس أوغوسطينوس رابطة نفسيّة، فهما منظران متشابهان لمبدأ واحد، رغم ما بين زمانيهما ومحيطيهما من الاختلافات المذهبيّة والاجتماعية. أمّا ذلك المبدأ فهو ميل وضعي في داخل النفس يتدرّج بصاحبه من المرئيات وظواهرها إلى المعقولات فالفلسفة فالإلهيّات.

اعتزل الغزالي الدنيا وما كان له فيها من الرخاء والمقام الرفيع وانفرد متصوّفاً، متوغّلاً في البحث عن تلك الخيوط الدقيقة التي تصل أواخر العلم بأوائل الدين، متعمّقاً في التفتيش عن ذلك الإناء الخفيّ الذي تمتزج فيه مدارك الناس واختباراتهم بعواطف الناس وأحلامهم.

وهكذا فعل أوغوسطينوس قبله بخمسة أجيال. فمن يقرأ له كتاب "الاعتراف" يرى أنّه قد اتخذ الأرض ومآتيها سلّماً يصعد عليه نحو ضمير الوجود الأعلى.

غير أنني وجدتُ الغزالي أقرب إلى جوهر الأمور وأسرارها من القديس أوغوسطينوس. وقد يكون سبب ذلك في الفرق الكائن بين ما ورثه الأوّل من النظريات العلميّة العربيّة واليونانيّة التي تقدّمت زمانه وما ورثه الثاني من علم اللاهوت الذي كان يشغل آباء الكنيسة في القرنين الثاني والثالث للمسيح، وأعني بالوراثة ذلك الأمر الذي

ينتقل مع الأيّام من فكر إلى فكر مثلما تلازم بعض المزايا الجسديّة مظاهر الشعوب من عصر إلى عصر.

ووجدت في الغزالي ما يجعله حلقة ذهبية موصلة بين الذين تقدّموه من متصوّفي الهند والذين جاؤوا من الإلهيّين. ففي ما بلغت إليه أفكار البوذيّين قديماً شيء من ميول الغزالي، وفي ما كتبه سبنوزا ووليم بلايك حديثاً شيء من عواطفه.

وللغزالي عند مستشرقي الغرب وعلمائه منزلة رفيعة. وهم يضعونه مع ابن سينا وابن رشد في المقام الأوّل بين فلاسفة الشرق. أمّا الروحيون بينهم فيحسبونه أنبل وأسمى فكرة ظهرت في الإسلام. ومن الغرائب أنّني شاهدت على جدران كنيسة في فلورنسا (إيطاليا) من بناء الجيل الخامس عشر صورة الغزالي بين صور غيره من الفلاسفة والقدّيسين واللاهوتيّين الذين تعتبرهم أئمّة الكنيسة في الأجيال الوسطى دعائم وأعمدة في هيكل الروح المطلق.

ولكن الأغرب من ذلك هو أن الغربيّين يعرفون عن الغزالي أكثر ممّا يعرفه الشرقيون. فهم يترجمونه ويبحثون في تعاليمه ويدقّقون النظر في منازعه الفلسفيّة ومراميه الصوفية. أمّا نحن، نحن الذين لم نزل نتكلّم اللغة العربيّة ونكتبها، فقلّما ذكرنا الغزالي أو تحدّثنا عنه. نحن لم نزل مشغولين بالأصداف كأن الأصداف هي كلّ ما يخرج من بحر الحياة إلى شواطئ الأيّام واللّيالي.

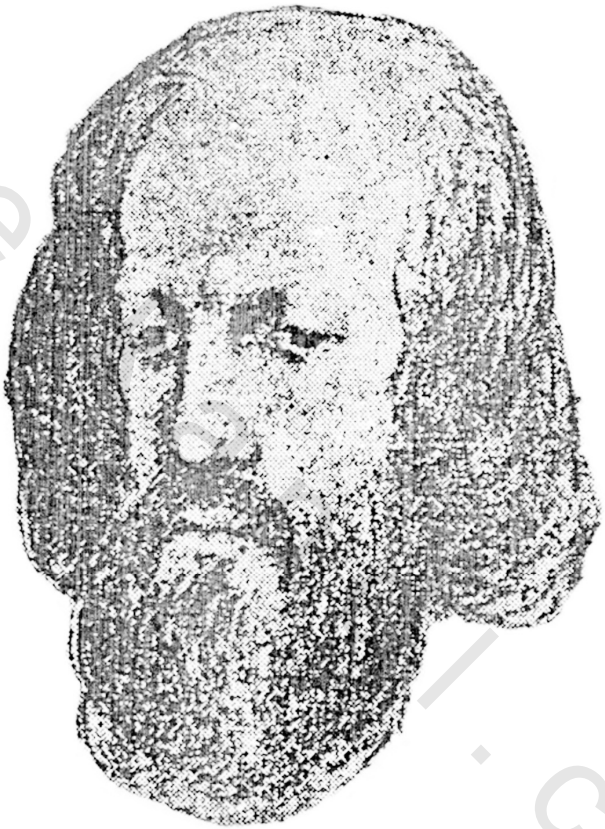

(الغزالي)

بريشة جبران خليل جبران

ابن الفارض

كان عمر بن الفارض شاعراً ربّانياً. وكانت روحه الظمآنة تشرب من خمرة الروح فتسكر ثمّ تهيم سابحة، مرفرفة في عالم المحسوسات حيث تطوف أحلام الشعراء وميول العشاق وأماني المتصوّفين. ثمّ يفاجئها الصحو فتعود إلى عالم المرئيات لتدون ما رأته وسمعته بلغة جميلة مؤثرة، لكنّها غير خالية في بعض الأحايين من ذلك التعقيد اللفظي المعروف بالبديع، وهو في شرعي ليس بالبديع.

ولكن إذا وضعنا صناعة الفارض جانباً ونظرنا إلى فنّه المجرّد وما وراء ذلك الفن من المظاهر النفسيّة وجدناه كاهناً في هيكل الفكر المطلق، أميراً في دولة الخيال الواسع، قائداً في جيش المتصوّفين العظيم، ذلك الجيش السائر بعزم بطيء نحو مدينة الحق، المتغلّب في طريقه على صغائر الحياة وتوافهها، المحدق أبداً إلى هيبة الحياة وجلالها.

وقد عاش الفارض في زمن خال من التوليد العقلي والإحداث النفسي بين قوم منصرفين إلى التقليد والتقاليد، مشغولين باستفسار واستيضاح ما تركه الإسلام من الأمجاد الأدبيّة والفلسفيّة. غير أن النبوغ–والنبوغ معجزة إلهيّة– قد صار بشاعر الحموي فتنحّى عن

زمنه وعن محيطه واختلى بذاته لينظم ما يتراءى لذاته شعراً أبدياً يصل ما ظهر من الحياة بما خفي منها.

ولم يتناول الفارض مواضيعه من ماجريات يومه كما فعل المتنبي، ولم تشغله معميات الحياة وأسرارها كما شغلت المعري، بل كان يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا، ويغلق أذنيه عن ضجّة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية.

هذا هو الفارض : روح نقيّة كأشعة الشمس، وقلب متّقد كالنار، وفكرة صافية كبحيرة بين الجبال. وهو إن كان دون الجاهليّين عزماً وأقل من المولدين ظرفاً ففي شعره ما لم يحلم به الأوّلون ولم يبلغه المتأخرون.

obeikandl.com

(ابن الفارض)

بريشة جبران خليل جبران

أبو نواس

قال الإمام الشافعي : لولا تهتك أبي نواس لأخذت عنه.

هو جبار من الجبابرة المتمردين وبطل من أبطال الفكر وشجعان الحرية الذين ولدوا قبل أوانهم في وسط لم يقدرهم حق قدرهم، فاحتملوا التحامل، وجاهدوا في سبيل إطلاق شعلة الفكر من قيود الاستبداد والظلمة، وهلكوا. ولكن نتاج قرائحهم الحرة لم يهلك.

يذكر جمهور العامة أبا نواس في هذا العصر معتدين أنه الهازل الماجن الذي تروى عنه نكات مضحكة وتنسب إليه فعلات سخيفة حتى أن البعض لا يبخلون عليه بلقب "مهرج الخليفة". والحقيقة أن أبا نواس لم يكن مهرجاً كما يفهمه العامة ولم تكن حياته كلها محصورة في منادمة الخلفاء بل كان شاعراً عظيماً مفكراً حراً لا يهاب أن يطلق العنان في شعره لكلمات حرة واعتقادات صائبة لم يجسر سواه قبله على النطق بها، فأتم واجبات الشاعر الحقيقي الذي تخلده الآلهة والبشر، وكان أول من وقف في الإسلام وقفة الجبار أمام كتائب الخرافات والعوائد الواهية وما تفه من عقائد الأديان والشرائع، وطعنها طعنات اضطرب لها غلاة المتدينين والمتعصبين والمتمسكين

فلم يبخلوا بأن يطلقوا على هذا الشاعر العظيم ألقاب "الخليع والكافر واللعين" وغيرها.

كان أبو نواس زعيماً لحركة فكرية شعرية أتت بعد ذلك الجمود الذي عقب انشغال الإسلام بالفتوحات والانشقاقات الداخلية فنتج عنه ضعف روح الشعراء المخضرمين والإسلاميين من الدور الأول. فكان دور أبي نواس دور ازدهار للشعر العربي الذي انطلق قليلاً من عقاله وللحرية الفكرية التي وضعتها العقائد الفقهية في قالب من حديد. فالتف حول أبي نواس حلقة من الشعراء الذين نسجوا على منواله واقتدوا به فدعوا "بالشعراء المولدين". وهم أحدثوا في الأدب العربي طوراً جديداً خالفوا به القواعد الضاغطة المرعية والقوانين الحديدية. فكانوا أول من تملص من خناق ألفاظ الجاهلية وقيود القواعد السخيفة في اللغة والأوزان المعدودة المحدودة في القريض.

امتاز أبو نواس في شعره بمحبته للحياة واندفاعه نحو كل جميل ومطرب ومنير فسبق عمر الخيام إلى مذهبه بمئات من السنين وما الخيام عند الحقيقة إلا آخذاً عن أبي نواس مقلداً إياه. على أن شعر الأخير محصور في نوع واحد. وشعر أبي نواس لا يدع باباً دون أن يطرقه شأن الشعراء الكبار الذين ينزلون على الناس من علو سمائهم ما يخلقه شعورهم من حكمة ناضجة ومبدأ جليل ووصف شائق وفكاهة

مطربة وعواطف رقيقة وأفكار دقيقة. ولو أن أشعار أبي نواس كلها محفوظة إلى هذا العصر لرأينا فيها البدائع والغرائب من صرخات الفكر الحر المتدفق الثائر. ولكن التعصب الديني الذي قضى على مكتبة الإسكندرية بالحريق لم يسمح أن تبقى كل أقوال هذا الشاعر ولا سيما قصائده التي يظهر فيها نظراته في الدين. ولا شك أن الرواة والناسخين أعدموها عملاً بإشارة الأئمة كما فعلوا بعدئذ بكتب سواه من جبابرة الفكر كالحلاج والمعري وابن رشد. فلم يبق لنا من أثار أبي نواس إلا ديوان لا يضم نسف ما سال من قريحة الشاعر الوقادة، إذا تأمله الناقد يرى بسهولة أن قصائد كثيرة من النوع المجوني منسوبة زوراً إلى أبي نواس. ولا ننكر أن توسع أبي نواس في الحرية أوصله إلى المجون ولكن الرواة بعده أصبحوا ينسبون إليه كل قصيدة مجونية مهما كانت درجتها في السخافة والحقارة.

مات أبو نواس قتلاً بيد رهط من المتعصبين في الدين حسب رواية بعض المؤرخين. قتل لأنه جاهر بآرائه الحرة في شعره فمات شهيد الحرية. وكان من طلائع مجاهدي الفكر الذين سقطوا من العرب في معمان المعركة الكبرى التي تتأجج نارها منذ الأزل بين كتائب الظلام وفرسان النور(*).

(*) "الفنون"، – يونيو ١٩١٩.

(أبو نواس)

بريشة جبران خليل جبران

رضا توفيق بك

إذا عاند القضاء أمة جعل حكماءها تحت رحمة جهالها.

وإن صح قول الأقدمين أن القضاء فكرة قوية خفية عمياء تطوف في مشارق الأرض ومغاربها أقل أن تلك الفكرة تهزل مع الأمم كافة ولكنها تسخر بالعثمانيين وتداعب الشعوب في بعض الأحايين ولكنها تلعب بالأتراك على الدوام.

منذ بضعة أسابيع ألقى رضا توفيق بك الفيلسوف العثماني خطاباً في مجمع عام في الآستانة، ولم ينزل عن منبر الخطابة حتى حكم عليه (الأحرار المتحدون الراقون) بسجن خمسة وعشرين يوماً ذلك لأنه لم يحصل على إجازة من الحكومة عندما افتكر ليتكلم وقبل أن تكلم ليجعل الناس أن يفتكروا.

ومنذ أسبوعين وقد أفرج عن رضا توفيق بك ذهب إلى مدينة كولمنجة وبينما كان يتكلم عن الانتخابات الحاضرة هجم عليه خمسة عشر رجلاً من رعاع الأتراك وأجلافهم وطفقوا يضربونه ضرباً مبرحاً حتى أدموه وأنهكوه.

إن الحكومة العثمانية قد سجنت الفيلسوف ورعاع العثمـــانيين ضربوه وأهانوه، ومن يجد فرقاً بين حكومة تضع رجلاً مفكـــراً فـــي ظلمة السجن، وأجلاف يضربونه على قارعة الطريق يكن من العميان الثرثارين الذين لم يرثوا عن آبائهم سوى علم الكلام المحبوب كثيـــراً عند الشرقيين.

ولكن إذا أراد الله إظهار حق بعث إليه من يقاومه.

إن حكومة الآستانة قد أولت رضا توفيق بك شرفاً عظيماً على غير قصد منها عندما حكمت عليه بالسجن. ورعاع كولمنجة قد حبوه وسام فخر اثيل على غير معرفة منهم لما أوسعوه ضرباً وإهانة. لأن العدل الخفي لا يأخذ من الفرد الكبير راحته الجسدية إلا ليمنحه شـــرفاً نفسياً عوضاً عنها، ولا يستبيح دماء الرجال إلا ليصوغ له عقوداً من المجد والفخار.

* * *

إنما الحرية الحقيقية عاطفة تحبل بها الأرواح الراقية ولكنها لا تتمخض بها إلى في ظلال الاستبداد ولا تلدها إلاّ أمام العروس القائمة فوق العظام والجماجم البشرية.

obeikandl.com

الحرية شعلة مقدسة توقدها الآلهة في نفوس الأفراد الأقوياء ومهما اكتسحتها الأنواء والعواصف تظل متقدة مشعشعة هازئة بدخان محيطها ساخرة برماد مضطهديها.

قد يسجن الحر أما حريته فتبقى مرفرفة في الفضاء المتسع أمام وجه الشمس. وقد يضرب الحر ويهان أما حريته فتظل في مأمن من الأيدي الخشنة والأصابع القذرة. وقد يموت الحر أما حريته فتبقى سائرة مع مواكب الحياة نحو الأبدية.

* * *

ومما لست أفهمه وجود قوم يحاولون إخضاع الفكر وقتل المبادئ غير عالمين أن مناصبة القوى النفسية تنميها والضغط على الأميال الوضيعة يثيرها. ومن العجائب أن يكون القائمون بشؤون الدولة العثمانية متعامين عما تركه لنا التاريخ من الأمثلة التي تظهر بأن الحق لا يغلب على أمره وأن الذين يحاربون المبادئ والتعاليم الاجتماعية يكونون كالذين يحاولون إطفاء النار بالزيت.

أما المبادئ التي تندثر بالمقاومة فليست بمبادئ بل هي من الأوهام التي تجيء مع أخيلة الليل وتروح بيقظة الصباح. والتعاليم التي تنسحق تحت أقدام المقاومين تكون خالية من الحقيقة، لأن الحقيقة

روح أزلية أبدية تتوارى عن أبصار الناس هنيهة أو أكثر ولكنها لا تضمحل وتبتعد عن العائلة البشرية جيلاً وجيلين وثلاثة ولكنها لا تلبث أن تظهر أمامها بظهور نبي كريم أو شاعر كبير أو مصلح عظيم وما الأنبياء والشعراء والمصلحون سوى أوتار فضية في قيثارة الوجود تحرك بحراك الفكر الكلي المطلق، وتولد أنغاماً هائلة بعذوبتها، فتاكة بحلاوتها، خالدة بخلود السماء والأرض وما بينها من الملائكة والشياطين.

إن النبي الذي صرخ قائلاً "الله أكبر" لم يقل شيئا من عنده بل أسمع الناس حكمة ترددها النجوم والشموس والأقمار وتُرجع صداها أعماق البحار وخلايا الأودية في كل دقيقة من كل ساعة من كل يوم وليلة. لم يختلق فكراً جديداً بل وضع في آذان البشر ما كان مختبئاً في قلوبهم منذ ابتداء الدهور.

والشاعر الذي قال "الجمال هو الحق" لم يبن أمراً خفياً بل فتح عينيه فرأى حقيقة أولية كائنة بكيان الطبيعة.

* * *

تقرر في ما جاء أن الحق قوة حية وضعية تعلن بذاتها على رؤوس الأشهاد رضي الناس أم غضبوا. وأن القائمين بإظهار الحق

هم آلات توقع عليها أصابع الله الخفية، فإن ضربوا فالحق لا يضرب وإن سجنوا فالحق لا يسجن وإن قتلوا فالحق لا يموت بل يظل سائراً في سبيله ساخراً بالأيدي الضعيفة المتمسكة بقدميه.

فإذا كان رضا توفيق بك ممن اتخذهم الحق أتباعاً فليفتخر بظلمة السجن لأنها أوقفته خمسة وعشرين يوماً بين سقراط وميرابو، وليفرح بخشونة أكف الرعاع والأجلاف لأنها سقته بالكأس التي شرب منها علي السعاوي ومدحت باشا، وليصرخ معي قائلاً إنما الحق عاصفة هوجاء وما المقاومون سوى أغصان يابسة ومنازل متداعية(*).

(*) مرآة الغرب، ١٧ أبريل ١٩١٢.

obeikandl.com

١- أبو العلاء المعري

لقد مرّ ألف سنة على عهد أبي العلاء المعري ولكن أبا العلاء لم يزل حياً بحياة الفكرة البشرية كاناً بكيان الروح المطلق.

وأبو العلاء وهو منحجب وراء ألف علية من نقاب الأبدية لفي غنى عن تمجيد وتبجيل الذين ما برحوا في قبضة المقاييس والكمية فنحن مهما فعلنا لا نستطيع أن نكرمه بعد أن مرت عشرة أجيال على انعتاقه من ظلم الحياة وظلمة الجسد غير أننا نقدر أن نتخذ اسمه الكبير واسطة لتكريم نفوسنا ونقيم من أخلاقه النبيلة معاهد لأخلاقنا ونبني من مظاهر روحة الخالدة مساجد لأرواحنا. فإذا ما عيدنا له لا نكون إلا كأطفال جائعين جلسوا حول مائدة شهية المآكل والمشارب. وإذا ما ترنمنا متشجعين بذكره لا نكون إلا كقوم أخافهم هول الليل فهبوا قابضين على سيوفهم ورماحهم –وهل أوجد الشرق من الأسلحة المعنوية سيفاً أمضى من اسم أبي العلاء أو رمحاً أصلب من وجدانه؟ هل ظهر في سوريا فكرة أشد ذكاء من فكرة المعري؟ هل قام في الإسلام أو المسيحية روح تمردت على أوهام العصور وتقاليدها قبل أن تتمرد روح المعري؟

مهما علت أصواتنا لا تبلغ ذلك العالم الذي تسكنه نفس المعري. أما صوته الشجي الرهيب فقد أخترق عشرة عصور وبلغ مسامعنا كهدير مياه غزيرة. صوت هائل برقته رقيق بهوله يرتفع بالأميال إلى مسارح الخيال المطلق ثم يهبط بالأماني إلى مراسح الحقيقة المجردة. صوت تألفت بنبراته ضجة الأمواج مع تنهدات الورود وصراخ العواصف مع تغريد البلابل. صوت شاعر أعمى. صوت متألم متمرد. صوت متجبر متجلد. صوت ملك من ملوك الفكر. صوت سوري عصامي يتموج لن يُخرسه الدهر حتى يغمر البحر جزيرة العرب ويفني الموت آخر عربي عن وجه الأرض.

* * *

هذا هو أبو العلاء المعري وقد حبانا القضاء فجعل عظمته ميراثاً لنا فعلينا ونحن بحاجة إلى امرئ نفتخر به أن نستثمر تلك العظمة ونعلم الآتين من بعدنا كيفية استثمارها. علينا أن نقوم بواجب أولي نحو أبنائنا وأحفادنا بأن نرفع بين المنازل التي نبنيها لهم تمثالاً جليلاً لأبي العلاء ينظرون إليه ويستظلون بفيئه ويومئون نحوه متفوقين عندما يجمعهم المستقبل بأبناء وأحفاد الذين يفتخرون بشكسبير ودانتي وملتون وجوث.

ولهذا أطلب إليكم أيها السوريون أن تشاطروني شرف القيام بهذا المشروع. أطلب من كل فرد منكم رجلاً كان أو امرأة. أطلب من العامل والأديب والتاجر والصحافي بل أطلب من كل من يحب نفسه ويكرمها أن يساعدني على إيفاء دين أوجدته الحياة وأوجبته علينا نحو نفوسنا.

ليس بينكم من لا يستطيع المساعدة بأمر من الأمور فالذي لا يقدر أن يساعد بماله فليساعد بقلبه أو بمحبته ولكن إن كان بينكم من لم ترزقه الأيام مالاً ولم تعطه الحياة قلباً ولم يهبه الله حمية فله أقول "لست بسوري وسوريا بغنى عن أمثالك"(*).

(*) مرآة الغرب، ١٨ أبريل ١٩١٤.

openkandl.com

٢- أبو العلاء المعري

كان أعمى بين مبصرين، ومبصراً بين عميان، وقد قادته هذه الحالة إلى الوحدة، فالتشويش، فالكآبة، فالشك، فالتمرد.

نظر إلى الحياة بعينهِ المعنوية، فرأى الخرافات فتوهمها ديناً، وأبصر الموت فظنه فناءً وحدَّق إلى الفضاء فتخيله رباً، فانتصب بين أشباح أفكاره يجدّف على اسم الحياة في جيلٍ مستسلم إلى مشيئةِ الأيامِ والليالي استسلامَ العناصر غير العاقلة إلى قوةِ الاستمرار.

كان شاعراً متمرداً ولم يكن فيلسوفاً، فالفيلسوف يجرد الوجود من ظواهره فيبدو له عارياً مطلقاً، أما الشاعر فيراهُ سائراً في حقلٍ من الأوزان الرنانة والمعاني المبتكرة. فالمعري لم يوجِد فلسفة مطلقة ولكنه أوجد شعراً مطلقاً.

ولكن أيُّ بشريٍّ تمكن من إيجاد فلسفةٍ مطلقة؟

أوَليست الفلسفةُ كالأزياء تتبدَّل مع العصور وتتقلبُ مع الأميال؟

إنما الحياة موكبٌ يسير أبداً إلى الأمام، فالفيلسوف يستطيع أن يوقفها دقيقة بفكرةٍ مبتكرة، أو بتعليم جديد، ولكنهُ لا يقدر أن يصـــدّها عن متابعة السير إلى حيث لا ندري.

أما الشاعر فيسيرُ معها مترنماً، متشبباً راثياً، واصفاً مفاخراً، فإذا ما تنحّى عن سبيلها ضحكت منه، وإن ظلَّ متّبعاً آثارَ قدميها قادتُه إلى هيكلها الأقدس وكللته بالغار.

ولقد كللتِ الحياة أبا العلاء بأوراق الغار ولكنها لم تلتفت إليـــة كفيلسوف.

إن الحياة تتمرّد حتى على المتمردين.

obeikandl.com

(ابن خلدون)

بريشة جبران خليل جبران

(الخنساء)

بريشة جبران خليل جبران

(مجنون ليلى)

بريشة جبران خليل جبران

(أبو الطيب المتنبي)

بريشة جبران خليل جبران

obeikandl.com

مسرحيـــــات

obeikandl.com

بدء الثورة

المكان: قهوة في البحر في بيروت.

الزمان: يوم ممطر من شهر شباط سنة ١٩١٤.

الأشخاص: أحمد بك – مسلم

فريد أفندي – مسيحي

يرفع الستار عن فريد أفندي المسيحي وأحمد بك المسلم وهما جالسان إلى مائدة عليها بعض الأطعمة والأشربة.

فريد أفندي: ما أذكي هؤلاء الأتراك وما أدق معرفتهم بالفطنة السورية والأخلاق العربية فهم يعرفون في أي موضع من الجسم السوري توجد العلة فيهرقون عليها أعاصير احتيالهم وينثرون فوقها مساحيق ثعلبتهم.

أحمد بك: بحقك لا تدع التركي ذكياً بل قل هو السوري فتى ضائع أعمى يسير في ظلمة حالكة فإذا ما بدا له عن بعد ضوء مسرجة توهمه شمساً أو قمراً. لا ليس التركي بذكي ولكن هي حماقة السوري العربي التي تظهر كل حماقة سواها بمظهر المعرفة والذكاء.

obeikandi.com

فريد أفندي: اسمع يا صديقي. منذ عامين وزبدة الفكرة السورية تعلو فوق نار من التحمس، وتتمدد منبسطة على طبق من الحرية والإصلاح والمبادئ السامية التي أوجدت جان جاك روسو وفولتير وبتريك هنري وغاريبالدي وغيرهم من الذين رفعوا للحرية أنصاباً في صدور الغربيين. واليوم قد مد التركي ذراعه الطويلة وسكب فوق زبدة الفكرة السورية مزيجاً من ذلك المخدر السحري الذي كونته أدمغة ساسة العثمانيين منذ استهلال القرن التاسع عشر. ذلك المخدر الذي يبدو تارة بصورة الدبس وطوراً القطران. واليوم إذا حاول أمهر الكيماويين استخراج تلك الزبدة السورية من بين الدبس والقطران التركيين لما استطاع إلى ذلك سبيلا.

أحمد بك: يذكرني كلامك هذا بمقالة قرأتها لجبران خليل جبران في المخدرات والمباضع ولا أخالك سوى مبالغ مثل ذلك الكاتب الذي يرى الحالة الشرقية من وراء غيمة سوداء.

فريد أفندي: نعم أنا أرى رأي ذلك الكاتب السوري وقد كان زمن كنت فيه أظنه من المبالغين الذين لا يرون لليل الشرقي صباحاً ولا لشتاء سورية ربيعاً أما الآن فقد صرت استصوبه وأتشبه به.

أحمد بك: لا تبالغ. بل دعنا ننظر إلى الحالة الحاضرة نظرة الطبيب إلى العليل أنت تنسب الذكاء إلى التركي والحمرنة للسوري. أما أنا فأنسب البغلنة إلى كلا العنصرين.

فريد أفندي: ماذا تعني بذلك.

أحمد بك: أنا مسلم وشرقي بإسلامي وقد عشت زمناً في أوروبا عرفت فيه عظمة الإسلام ومركز الإسلام من المدنية الحاضرة. ولما عدت إلى بلادي وجدتني غريباً في وطني متشرداً بين أهلي وخلاني غير أني لم أتعام عن مجد الإسلام وأن بين العميان من المسلمين. ولست بقانط من مستقبل الشرق وأنا بين المقعدين من الشرقيين. فالشرق حقيقة هائلة والإسلام حقيقة عظيمة. أما البغلنة فهي محاولة التركي لجم القوى العربية. وما القوى العربية من الإسلام إلاّ بمنزلة القلب من الجسد. والبغلنة في اقتناع العربي المائت جوعاً بمضغه من أذناب الفجل، بينما خبز الحياة يملأ السهول والأودية. إن استئثار التركي بالحكم يقرب التركي من الملاشاة والعدم. كما أن اقتناع السوري الوجيه المدعو مصلحاً بوظيفة في مجلس الأعيان يُدنيه على غير معرفة منه إلى عشرين قدماً مربعاً من إسطبل الحمير الذي بناه العثمانيين لكل من يرفع رأسه إلى الفضاء ويترك رجله غارقة في الماء. هذه هي فلسفة البغلنة.

فريد أفندي: والله لقد أعجبتني يا أحمد بك فأنت متضلع بطبائع الدواب!

أحمد بك: نعم فهؤلاء قوم لا يمتازون عن الجمال والحمير والبغال. وعندما أفكر بذلك النسر الذي مد جناحيه في الماضي من البلاد الأندلسية إلى قلب الصين، وأراه اليوم مكبلاً بقيود طرقتها أيدي حمقاء العرب والأتراك، تضطرب نفسي في داخلي وتتهيج دقائق دماغي وأود لو بعث خالد بن الوليد من قبره ليحطم تلك القيود المتشبثة برجلي أنبل نسر أوجهه التاريخ .. المتشبثة برجلي الإسلام الذي أقام العلم وأقعده، الذي أوجد مجد دمشق وبغداد والبصرة والقاهرة وغرناطة، الذي صيّر ابن العاص قائداً وأنبت ابن خلدون فيلسوفاً وأظهر المتنبي شاعراً.

فريد أفندي: أنا أقتنع بكل ما قلته يا أحمد بك. فالإسلام حقيقة هائلة. على الإسلام أن يبقى مجرداً عن الزوائد التي تسلب ما فيه من العزم والحياة.

أحمد بك: إن طبيعة الإسلام لا تقبل الزوايد. فالإسلام حقيقة مجردة مطلقة. فإذا كان المسلمون يتعاملون وينصرفون عنه إلى الزوايد فلا يكون ذلك ناتجاً عن أمراض معنوية في الإسلام (كما يتوهم بعض الغربيين) بل في المسلمين. ولا يسهو عن بالك أن الإسلام ليس يدين فقط كما يظن مستشرقو الإنكليز بل هو دين وشريعة مدنية تضم تحت جناحيها الهائلين جميع حاجات الإنسان في كل

عصر. فالمسلم الحقيقي مع كونه متبعاً لعاطفة روحية هو أيضاً فـرد من مجموع مدني وحضارة فخمة.

فريد أفندي: أحسنت يا بك. والمسيحي يعزو كل ما عزوتـه للإسلام للمسيحية. فهو يعتبرها كدين روحي ويحسبها أساساً للمدنيـة الأوروبية والأمريكية.

أحمد بـك: لكل امرئ تمام الحرية أن يفتكر ويقول ما يريـده غير أني وجدت الحقيقة تدعم قول واحد وتتبرأ من قول الآخر.

فريد أفندي: ماذا تعني؟ هل تظن أن الحقيقة تتبرأ من أوروبي يقول أن المسيحية قد أوجدت المدنية الحاضرة؟

أحمد بك: (يظل صامتاً دقيقة ثم يقول متردداً): هل تظـن أن الحقيقة تدعم قوماً يجاهرون بتعليم في كنائسهم، وفي الوقـت نفسـه يضادون ذلك التعليم على خط مستقيم في معاهدهم السياسـية، وفـي وزاراتهم الحربية، بل وفي كل مكان ينبت فيه عملاً مذكوراً للأفرنج؟ أنا أحترم المسيحية كدين. ولكنني لا أستطيع أن أوفق بين المسـيحية وأعمال المسيحيين. وهذا هو الفرق بـين المسـيحية والإسـلام. لأن الإسلام يعلم ويعمل بموجب تعاليمه. أما المسيحية فـلا تفعـل ذلـك. المسيحي يحب أعداءه في الكنيسة. وعندما يخرج منها يفكر بالسـبل

الفعالة التي تفني أعداءه. المسيحي يمجد الفقر والمسكنة والوداعة عندما يكون جالساً أمام إنجيله. ولكنه لا يضع ذلك الكتاب جانباً حتى ينتصب مفاخراً بغناه مكابراً بجبروته متشامخاً بغطرسته. المسيحي يلوي عنقه ويمد ذراعيه ويقول بصوت يضارع تنهدة العذراء (من ضربك على خدك الأيمن فحلو له الأيسر) ثم لا يلبث أن ينتفض ن كالأسد الجائع قائلاً: في كل ميناء من موانئ بلادي مدرعات مصفحة تحمل مدافع مزندة تحصد الأرواح حصداً. فمن يتجاسر ويلمس بالإهانة أطراف أثوابي يموت موتاً مراً. المسيحي يقول منغماً: لنكن مثل زنابق الحقل التي لا تغزل ولا تحيك ولكنها تعيش أمام وجه الشمس بمجد لم يره سليمان. ومع ذلك نرى المسيحي مفكراً بأدق الحيل التي تنقل الفضة والذهب من جيب قريبه إلى جيبه. المسيحي يقول الدنيا لا شيء الآخرة كل شيء ولكنه يعيش للدنيا ولا يذكر الآخرة. نعم والله أنا أحترم المسيحية ولكنني أقول مع نيتشه: وجد مسيحي واحد وقد مات مصلوباً. وأقول مع جبران خليل جبران: لو عاد يسوع الناصري إلى هذا العالم لمات جائعاً منفرداً غريباً. هذه هي المسيحية التي أعتبرها وهؤلاء هم المسيحيون الذين لا أستطيع أن أوفق بين تعاليمهم وأعمالهم(*).

(*) "نشرها جان ديه في كتابه "عقيدة جبران" ص٢٤٩-٢٥١، نقلاً عن وثائق جبران في مكتبة نورث كارولينا في الولايات المتحدة الأمريكية.

obeikandl.com

إرم ذات العماد

﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات
ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾[٢٧]
(القرآن الكريم)

﴿يدخلها بعض أمتي﴾ (الحديث)

توطئة لإرم ذات العماد:

بعد أن ملك شدّاد بن عاد جميع الدنيا أمر ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضاً واسعة كثيرة الماء طيّبة الهواء بعيدة عن الجبال ليبني فيها مدينة من ذهب. فخرج أولئك الأمراء ومع كلّ أمير ألف رجل من خدمه وحشمه. فساروا حتى وجدوا أرضاً واسعة طيّبة الهواء فأعجبتهم تلك الأرض فأمروا المهندسين والبنّائين فخطّوا مدينة مربّعة الجوانب دورها أربعون فرسخاً من كلّ جهة عشرة، فحفروا الأساس إلى الماء وبنو الجدران بحجارة الجزع اليماني حتى ظهر وجه الأرض ثمّ أحاطوا به سوراً ارتفاعه خمسمائة ذراع وغشوه بصفائح الفضّة المموّهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس. وكان شدّاد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا فاستخرج

---

[٢٧] سورة الفجر الآيات: ٦-٨.

openkandil.com

منها الذهب واتخذه لبناً. واستخرج الكنوز المدفونة ثـمّ بنـى داخـل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملكته كلّ قصر على أعمدة مـن أنواع الزبرجد واليواقيت معقدة بالذهب طول كلّ عمود مائـة ذراع. وأجرى في وسطها أنهاراً وعمل منها جداول لتلك القصور والمنـازل وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت وحلّى قصورها بصفائح الذهب والفضّة وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار جذوعها من الذهب وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت واللآلئ. وطلي حيطانها بالمسك والعنبر، وجعل فيها جنّة مزخرفة له. وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت وسائر أنواع المعادن. ونصب عليها أنواع الطيـور المسموعة الصادح والمغرّد وغير ذلك.

﴿الشعبي في كتاب سير الملوك﴾

إرم ذات العماد

المكان: غابة صغيرة من الجوز والحور والرمّان تحيط بمنزل قـديم منفرد بين منبع العاصي وقرية الهرمل في الشمال الشرقي من لبنان.

الزمان: عصاري يوم من أيّام تموز في سنة ١٨٨٣.

أشخاص الرواية: زين العابدين النهاوندي، وهو درويش عجمي في الأربعين من عمره، معروف بالصوفي.

نجيب رحمة: أديب في الثالثة والثلاثين.

آمنة العلوية: معروفة في تلك النواحي بجنيّة الوادي، ولا أحد يعرف عمرها.

يرفع الستار فيظهر زين العابدين متكئاً على ساعده في ظلال الأشجار وهو يرسم برأس عصاه الطويلة خطوطاً مستديرة على التراب. بعد هنيهة يدخل الغابة نجيب رحمة راكباً على فرس ثمّ يترجّل ويربط مقود فرسه بجذع شجرة وينفض الغبار عن ملابسه ثمّ يقترب من زين العابدين.

نجيب رحمة: السلام عليك يا سيّدي.

زين العابدين: وعليك السلام. ويحوّل وجهه قائلاً في نفسه: أمّا السلام فنقبله، وأمّا السيادة فلا ندري أنقبلها أم لا.

نجيب – ينظر حواليه مستفحصاً: أهنا تسكن آمنة العلوية؟

زين العابدين: هذا منزل من منازلها.

نجيب: أتعني يا سيّد أن لها بيتاً آخر؟

زين العابدين: لها منازل لا عدد لها.

نجيب: منذ الصباح وأنا أبحث واسأل كلّ من لقيته عن مقـرّ آمنة العلويّة ولم يقل لي أحد إن لها منزلين أو أكثر.

زين العابدين: هذا دليل على أنّك لم تلتق منذ الصباح غير من لا يرى إلاّ بعينيه ولا يسمع إلاّ بأذنيه.

نجيب: مستغرباً: ربّما كان الأمر مثلما تقول. ولكن أصـدقني يا سيّدي أفي هذا المكان تسكن آمنة العلويّة؟

زين العابدين: نعم في هذا المكـان يسـكن جسـدها بعـض الأحايين.

نجيب : وهلاّ أخبرتني أين هي الآن؟

زين العابدين: هي في كلّ مكان (مشيراً بيـده إلـى الجهـة الشرقيّة) أمّا جسدها فيسير متجوّلاً بين تلك التلول والأودية.

نجيب: وهل تعود اليوم إلى هذا المكان؟

زين العابدين: ستعود إن شاء الله.

نجيب: يجلس على صخر أمام زين العابدين ثمّ يتفحصه طويلاً: يبدو من لحيتك أنّك فارسي.

زين العابدين: نعم ولدت في نهاوند وربيت في شيراز وتثقّفت في نيسابور وجبت مشارق الأرض ومغاربها وأنا غريب في كلّ مكان.

نجيب: كلّنا غريب في كلّ مكان.

زين العابدين: لا والحق، فقد لقيت وحدّثت ألف ألفٍ من الناس فلم أرَ سوى المكتفين بمحيطهم، المستأنسين بألفهم، المنصرفين عن العالم إلى الفسحة الضيقة التي يرونها من العالم.

نجيب: معجباً بكلام جليسه: الإنسان يا سيّدي مطبوع على حبّ المكان الذي ولد فيه.

زين العابدين: المحدود من الناس مطبوع على حبّ المحدود من الحياة، وشحيح البصر لا يرى غير ذراع من السبيل الذي تطأه قدماه، وذراع من الحائط الذي يسند إليه ظهره.

نجيب: ليس لكلّ منّا المقدرة على الإحاطة بكليات الحياة. ومن الظلم أن تطلب من شحيح البصر أن يرى البعيد والضئيل.

زين العابدين: أصبت وأحسنت، فمن الظلم أن نطلب الخمر من الحصرم.

نجيب– بعد دقيقة سكوت: اسمع يا سيدي، منذ أعوام وأنا أسمع الأخبار عن آمنة العلويّة، ولقد أثرت بي هذه الأخبار إلى درجة قصوى فعزمت على الاجتماع بها لاستفسارها ومعرفة أسرارها وخفاياها.

زين العابدين– يقاطعه: أيوجد في هذا العالم من يستطيع معرفة أسرار آمنة العلويّة وخفاياها؟ أيوجد بين البشر من يقدر أن يسير متجولاً متنزّهاً في قاع البحر كأنّه في حديقة؟

نجيب: قد أسأتُ التعبير يا سيّدي فسامحني. أنا لا أقدر بالطبع على الإحاطة بمكنونات آمنة العلويّة ولكنني أرجو أن أسمع منها حكاية دخولها إلى إرم ذات العماد.

زين العابدين: ما عليك سوى الوقوف في باب حلمها، فإن فتح لك بلغت قصدك، وإن لم يفتح فأنت الملوم.

نجيب: ماذا تعني يا سيّدي بقولك إن لم يفتح لي كنت أنا الملوم؟

زين العابدين: أعني أن آمنة العلويّة أدرى الناس منهم بنفوسهم، فهي ترى بلمحة واحدة ما في ضمائرهم وقلوبهم وأرواحهم، فإن وجدتك خليقاً بمحادثتها حدّثتك وإلاّ فلا.

نجيب: ماذا أقول وماذا أفعل لأكون حريّاً باستماع حديثها؟

زين العابدين: عبثاً تحاول الدنوّ من آمنة العلويّة بواسطة القول والعمل، فهي لا ولن تصغي إلى ما تقوله ولا تنظر إلى ما تفعله بل سوف تسمع بأُذن أُذنها ما لا تقوله وترى بعين عينها ما لا تفعله.

نجيب –تظهر على ملامحه سيماء الدهشة: ما أبلغ كلامك هذا وما أجمله!

زين العابدين: ليس ما أقول عن آمنة العلويّة سوى دندنة أخرس يريد أن يغنّي نشيداً.

نجيب: أتعلم يا سيّدي أين ولدت هذه المرأة العجيبة؟

زين العابدين: ولدت في صدر الله.

نجيب –ملتبكاً: أعني أين ولد جسدها؟

زين العابدين: بجوار دمشق.

نجيب: وهلاّ أخبرتني شيئاً عن والديها وتربيتها؟

زين العابدين: ما أشبه سؤالاتك هذه بسؤالات القضاة والمتشرعين. أفتظن أنّك تستطيع إدراك الجواهر باستفسارك الأعراض، أو معرفة طعم الخمرة بمجرّد النظر إلى خارج الجرّة؟

نجيب: بين الأرواح وأجسادها رابطة، وبين الأجساد ومحيطها علاقة، ولما كنت لا أعتقد بالصدف أرى النظر في تلك الروابط وتلك العلاقات لا يخلو من الفائدة.

زين العابدين: أعجبتني، أعجبتني. يلوح لي أنك على شيء من العلم. إذا فاسمع. لا أعرف شيئاً عن والدة آمنة العلويّة سوى أنّها ماتت وهي تتمخّض بابنتها. أمّا والدها الشيخ عبد الغني الضرير المشهور بالعلوي فقد كان إمام زمانه في العلوم الباطنيّة والتصوّف. وقد كان رحمه الله، ولوعاً بابنته إلى درجة قصوى فهذبها وثقّفها وسكب في روحها كلّ ما في روحه، ولما بلغت أشدّها أدرك أن العلوم التي أخذتها عنه لم تكن من العلم الذي أُنزل عليها إلاّ بمقام الزبد في البحر فصار يقول عنها: لقد انبثق من ظلمتي نور أستضيء به. ولما

بلغت الخامسة والعشرين خرج بها لأداء فريضة الحج. ولما قطعا بادية الشام وأصبحا على بعد ثلاث مراحل من المدينة المنوّرة بلي الضرير بالحمى وتوفيّ فدفنته ابنته في لحف جبل هناك وجلست على قبره سبع ليالٍ تناجي روحه وتستكشفها أسرار الغيب وتستعلم منها عمّا وراء الحجاب. وفي الليلة السابعة أوحت إليها روح والدها أن تطلق راحلتها وتحمل زادها على عاتقها وتسير من ذلك المكان إلى الجنوب الشرقي، ففعلت (يسكت دقيقة ويحدق إلى الأفق البعيد ثمّ يعود إلى الكلام) وظلت آمنة العلويّة سائرة في البادية حتى وصلت إلى ﴿الربع الخالي﴾ وهو قلب الجزيرة الذي لم تخترقه قافلة ولم يصل إليه سوى أفراد قليلين منذ بدء الإسلام إلى يومنا هذا. أما الحجاج فظنّوا أنها تاهت في تلك القفار وقضت جوعاً، ولمّا عادوا إلى دمشق أخبروا الناس بذلك فحزن عليها وعلى أبيها من عرف فضلهما ثمّ التحف ذكرهما النسيان كأنهما ما كانا ....

وبعد خمسة أعوام ظهرت آمنة العلويّة في الموصل. وكان ظهورها بما هي عليه من الجمال والهيبة والعلم والصلاح أشبه شيء بهبوط نيزك من الفضاء. فقد كانت تسير بين الناس مسفرة وتقف بحلقات العلماء والأئمة متكلمة عن الأمور الربّانية وتصف لم مشاهد إرم ذات العماد بفصاحة ما سمع القوم بمثلها. ولما اشتهر أمرها وكثر

عدد أتباعها ومريديها خاف علماء المدينة ظهور بدعة وخشوا الفتنة فشكوها إلى الوالي فاستقدمها هذا إليه وألقى بين يديها صرّة من الذهب وطلب إليها أن تغادر المدينة، فرفضت المال وتركت المدينة ليلاً دون أن يصحبها أحد من الناس. ثمّ توجهت إلى الآستانة فحلب فدمشق فحمص فطرابلس، وكانت في كلّ مدينة من هذه المدن تثير ما سكن في نفوس الناس وتشعل ما خمد في وجدانهم فيلتفون حولها ويصغون إلى محاضراتها وأحاديث اختباراتها العجيبة مجذوبين بعوامل قويّة سحريّة. غير أن أئمّة الدين وشيوخ العلم في كلّ بلد كانوا يصادرونها ويفندون أقوالها ويعرضون بها إلى الحكّام. بعد ذلك طلبت نفسها العزلة فجاءت هذا المكان منذ أعوام واستوحدت به زاهدة متعبّدة منصرفة عن كلّ شيء سوى التعمّق في الأسرار الربّانية. هذا قليل من كثير أعرفه عن حياة آمنة العلويّة. أمّا ما حباني الله بمعرفته عن ذاته المعنويّة وما يتآلف في نفسها من القوى والمواهب فليس بإمكاني الكلام عنه الآن. ومَن من البشر يا ترى يستطيع أن يجمع الأثير بهذا العالم في كؤوس وأكواب؟

نجيب – متأثراً: أشكر لك يا سيّدي ما تفضلت وحدّثتي به عن هذه المرأة العجيبة. لقد ضاعفت شوقي إلى الوقوف بحضرتها.

زين العابدين – يتفرّس فيه دقيقة: أنت مسيحي. أليس كذلك؟

نجيب: نعم، ولدت مسيحياً غير أنّني أعلم أنّنا إذا جردنا الأديان ممّا تعلّق بها من الزوائد المذهبية والاجتماعية وجدناها ديناً واحداً.

زين العابدين: أصبت، وليس بين البشر أدرى بالوحدة الدينيّة المجرّدة من آمنة العلويّة، فهي في الناس على اختلاف طوائفهم كندى الصباح الذي يهبط من الأعالي وينعقد درّاً مشعشعاً بين أوراق الأزهار المتباينة لوناً وشكلاً. نعم هي كندى الصباح ...

(يقف زين العابدين فجأة عن الكلام ويلتفت إلى الجهة الشرقية مصغياً ثمّ ينتصب على قدميه ويومئ إلى نجيب أن ينتبه فيفعل هذا ممتثلاً).

زين العابدين – هامساً: هو ذا آمنة العلويّة.

(يرفع نجيب يده إلى جبهته كأنّه أحسّ بحدوث تغيير في دقائق الهواء ثمّ ينظر فيرى العلويّة آتية فتتغيّر ملامحه ويضطرب في داخله ولكنّه يبقى واقفاً في مكانه كالتمثال ... تدخل آمنة العلويّة وتقف أمام الرجلين وهي بهيئتها وحركاتها وملابسها أقرب إلى معبودات الشعوب الغابرة منها إلى امرأة شرقيّة في الزمن الحاضر. ومن الصعب تحديد عمرها بمجرد النظر إلى ملامحها، فكأن الشباب في وجهها يستر ألف

سنة من المعرفة والاختبار. أمّا نجيب وزين العابدين فيظلان جامدين خاشعين متهيبين كأنّهما بحضرة نبيّ من أنبياء الله ... وبعد أن تحدق العلويّة إلى وجه نجيب كأنها تخترق بنظراتها صدره، تدنو منه وقد انبسطت ملامحها وابتسمت، وبصوت عذب تقول ...).

آمنة العلوية: جئتنا أيها اللبناني متنسّماً أخبارنا مستفحصاً حالنا. ولن تجد بنا إلاّ ما بك، ولن تسمع منّا إلا ما عرفته في نفسك.

نجيب – مفعولاً: ها قد رأيت وسمعت وصدقت واكتفيت.

العلويّة: لا تكن قنوعاً بالقليل، فمن يرد ينابيع الحياة بجرّة فارغة صُرف بجرتين طافحتين.

(تمدّ يدها إليه فيتناولها بكلتا يديه خاشعاً محتشماً ويقبل أطراف أصابعها مدفوعاً بعامل خفيّ. تلتفت إلى زين العابدين وتمد يدها إليه فيفعل هذا فعل نجيب ثمّ تتراجع قليلاً إلى الوراء وتجلس على حجر منحوت أمام بيتها وتشير إلى صخر قريب وتقول لنجيب): هذه مقاعدنا فاجلس.

(يجلس نجيب ويفعل زين العابدين فعله).

العلويّة: إنّا نرى بعينيك نوراً من أنوار الله، ومن ينظر إلينا ونور الله في عينيه يرى حقيقتنا عارية مجرّدة. وإنا نرى بوجهك ما يرفعه الإخلاص عن حبّ الاستطلاع إلى الرغبة في الحق. فإن كان على لسانك كلمة فقلها فنحن إليك مصغون. وإن كان في قلبك سؤال فاطرحه فنحن لك مجيبون.

نجيب: جئت مستعلماً عن أمر يتحدّث الناس به لغرابته، ولكني ما وقفت بحضرتك حتى علمت أن الحياة مظاهر الروح الكلية، فكان مثلي مثل صياد ألقى شبكته في البحر ليصطاد سمكاً ولما اجتذبها إلى الشاطئ وجد فيها صرّة من الحجارة الكريمة.

العلويّة: جئت تسألنا عن دخولنا إرم ذات العماد؟

نجيب: نعم يا سيدتي، منذ حداثتي وهذه الكلمات الثلاث ﴿إرم ذات العماد﴾ تعانق أحلامي وتتمشى مع خيالي بما وراءها من الرموز والمقاصد الخفيّة.

العلويّة – ترفع رأسها وتغمض عينيها وبصوت يخاله نجيب آتياً من قلب الفضاء تقول: أجل قد بلغنا المدينة المحجوبة ودخلناها وأقمنا فيها وملأنا روحنا من أريجها وقلبنا من أسرارها وجيوبنا من

لؤلؤها وياقوتها، فمن ينكر عليها ما شاهدناه وعرفناه كان ناكراً لذاته أمام الله.

نجيب – متأنّياً: ما أنا يا سيّدتي سوى طفل يلثغ متلعثماً بما يريد بيانه، فإن سألتك عن أمر فبخشوع أسأل. وإن استقصيت أمراً فبإمعان وإخلاص. فهلاّ جعلت عطفك عليّ شفيعاً بي لديك إذا ما أتعبت سرّك بسؤالاتي الكثيرة.

العلويّة: سَلْ ما شئت فقد جعل الله الحقيقة ذات أبواب يفتحها بوجه من يطرقها بيد الإيمان.

نجيب: هل دخلت إرم ذات العماد بالجسد أم بالروح، وهل هي مدينة مصنوعة من عناصر الأرض المتبلورة وقائمة في بقعة معلومة من الأرض. أم هي مدينة روحيّة ترمز عن حالة روحيّة يبلغها أنبياء الله وأولياؤه في غيبوبة يلقيها الله نقاباً على نفوسهم؟

العلويّة: ليس ما نراه على الأرض وما لا نراه سوى حالات روحية، وأنا قد دخلت المدينة المحجوبة بجسدي وهو روحي الظاهرة ودخلتها بروحي وهي جسدي الخفي. ومن يحاول التفريق بين ذرات الجسد كان في ضلال مبين. إنّما هي الزهرة وعطرها شيء واحد. فالأعمى الذي ينكر لون الزهرة وصورتها قائلاً: «ليست الزهرة

وعطرها سوى عطر يتموّج في الأثير﴾ ليس هو إلاّ كالمزكوم الـذي يقول : ﴿ليست الأزهار غير صور وألوان﴾.

نجيب: إذاً فالمدينة المحجوبة التي ندعوها بـإرم ذات العمـاد حالة روحيّة؟

العلوية: كلّ مكان وزمان حالـة روحيّـة. وكـلّ المرئيـات والمعقولات حالات روحية. فإن أغمضت عينيك ونظرت في أعمـاق أعماقك رأيت العالم بكلياته وجزئياته وخبرت ما فيه مـن النـواميس وعملت ما يلازمه من الذرائع وفهمت ما يتلمّسه من المحجّات. أجـل إنّك إذا أغمضت بصرك وفتحت بصيرتك رأيت بداية الوجود ونهايته، تلك النهاية التي تصير بدورها بداية وتلك البداية التي تتحـوّل إلـى نهاية.

نجيب: وهل بإمكان كلّ إنسان أن يغمض عينيه ويرى جوهر الحياة المجرّد؟

العلويّة: يستطيع كلّ إنسان أن يتشوّق ثمّ يتشوّق ثـمّ يتشـوّق حتى ينزع الشوق نقاب الظواهر عن بصره فيشاهد إذ ذاك ذاته. ومَن يرَ ذاته يرَ جوهر الحياة المجرّد. فكلّ ذات هي جوهر الحياة المجرّد.

نجيب – يضع يده على صدره: إذاً كلّ ما في الوجود من محسوس ومعقول كائن هاهنا في صدري؟

العلوية: كلّ ما في الوجود كائن فيك وبك ولك.

نجيب: أبإمكاني أن أقول لذاتي إن إرم ذات العماد موجودة في باطني لا في خارجي؟

العلوية: كلّ ما في الوجود كائن في باطنك وكلّ ما في باطنك موجود في الوجود، وليس هناك من حد فاصل بين أقرب الأشياء وأقصاها أو بين أعلاها وأخفضها أو بين أصغرها وأعظمها. ففي قطرة الماء الواحدة جميع أسرار البحار، وفي ذرة واحدة جميع عناصر الأرض، وفي حركة واحدة من حركات الفكر كلّ ما في العالم من الحركات والأنظمة.

نجيب – تظهر على وجهه علامات الالتباس: قد قيل لي يا سيّدتي إنّك قطعت المسافات الشاسعة حتى بلغت ذلك المكان المعروف بالربع الخالي في قلب الجزيرة. وقيل لي إن روح والدك كانت الموحية إليك والهادية لك والسائرة معك حتى بلغت إرم ذات العماد. أفليس على الراغب في الوصول إلى تلك المدينة المحجوبة أن يكون

في حالة شبيهة بحالتك وأن تكون له الوسائل الجسديّة والأسباب المعنويّة ليحصل على ما حصلت أنت عليه؟

العلوية: أجل قد قطعنا الصحارى وقاسينا الجوع والعطش وخبرنا مخاوف النهار ورمضاءه وأهوال الليل وسكينته قبل أن رأينا أسوار مدينة الله. ولكن قد بلغ مدينة الله قبلنا من لم يسر خطوة، وعرف جمالها وبهاءها من لم يختبر جوعاً في الجسد أو عطشاً في الروح. إي والحقّ لقد طاف في المدينة المقدّسة إخوانٌ لنا وأخوات دون أن يخرجوا من المنازل التي ولدوا فيها. (تسكت هنيهة ثم تومئ بيدها إلى الأشجار والرياحين المحيطة بها) لكلّ بذرة من البذور التي يلقيها الخريف في أديم التراب أساليب خاصّة في فسخ قشرتها عن لبابها وفي تكوين أوراقها فأزهارها فأثمارها. ولكن مهما تباينت الأساليب فمحجّة جميع البذور تظل واحدة. وتلك المحجّة هي الوقوف أمام وجه الشمس.

زين العابدين – يتمايل إلى الأمام وإلى الوراء متأثّراً كأنه انتقل بالروح إلى عالم سامٍ ثم يصرخ بصوت رخيم: الله أكبر. لا إله إلا الله الكريم الوهّاب الملقي ظلّه بين الألسنة والشفاه.

العلويّة: أجل. قل الله أكبر. لا إله إلا اله. وقل لا شيء إلاّ الله.

(يتمتم زين العابدين هذه الكلمات في ذاته أمن نجيب فيحدق إلى العلويّة كالمسحور وبصوت يكاد يكون همساً يقول): لا شيء إلا الله.

العلوية: قلا لا إله إلا الله ولا شيء إلا الله وكن مسيحياً.

نجيب – يحني رأسه محرّكاً شفتيه مردّداً كلماتها ثمّ يرفع رأسه قائلاً: قد قلتها يا سيّدتي وسوف أقولها إلى نهاية حياتي.

العلويّة: ليس لحياتك نهاية، فأنت باقٍ ببقاء كلّ شيء.

نجيب: مَن أنا وما أنا لأبقى خالداً؟

العلوية: أنت أنت. وأنت كلّ شيء، لذلك ستبقى خالداً.

نجيب: إني أعلم طبعاً يا سيّدتي أن الذرّات التي تتألّف منها وحدتي الهيوليّة ستبقى ببقاء الهيولى، ولكن أباقيةٌ يا ترى هذه الفكرة التي أدعوها أنا؟ أباقيةٌ هذه اليقظة الضئيلة الممنطقة بالهجوع؟ أباقيةٌ هذه الفقاقيع الملتمعة بنور الشمس وأمواج البحر التي ولدتها هذه الأمواج التي تمحوها لتولد غيرها؟ أباقيةٌ هذه الأماني والآمال والأوجاع والأفراح؟ أباقية هذه الأوهام المرتعشة في هذا النوم المتقطّع في هذا اللّيل الغريب بعجائبه الهائل باتّساعه وعمقه وعلوّه؟

العلويّة – ترفع عينيها إلى العلاء كأنّها تتناول شيئاً من جيوب الفضاء وتقول بلهجة إيجابيّة ملؤها العزم والمعرفة والخبرة: كلّ موجود باقٍ. ووجود الموجود دليل على بقائه. أمّا الفكرة وهي العلم بكليته، إذ لولاها لما علم العالم موجوداً كان أو غير موجود. فهي كيان أزلي أبدي خالد لا يتغيّر إلاّ ليتجوهر، ولا يختفي إلاّ ليظهر بصورة أسنى، ولا ينام إلى ليحلم بيقظة أبهَى. ولقد عجبت لمن يثبت بقاء الذرات في الغلافات الخارجيّة التي تتصوّرها حواسنا ولكنّه ينكر ما جُعلت الغلافات من أجله. عجبت لمن يقرّر خلود العناصر التي تتألّف منها العين ولكنّه يشكّ بخلود النظر الذي اتخذ العين آلة له. عجبت لمن يثبت أبدية المسبِّبات ولكنه يحتم باضمحلال الأسباب. عجبت لمن تشغله المظاهر المكونة عن المكون المظهر. عجبت لمن يقسم الحياة إلى شطرين فيؤمن بالشطر المدفوع ويجحد الشطر الدافع. عجبت لمن ينظر إلى تلك الجبال والسهول المغمورة بنور الشمس ثمّ يصغي إلى الهواء متكلّماً بألسنة الأغصان ثمّ يتجرّع عطر الأزهار والرياحين وبعد ذلك يقول لنفسه: لا ولن يزول ما أراه وأسمعه، لا ولن يضمحلّ ما أعرفه وأشعر به، ولكن هذه الروح العاقلة التي ترى فتتهيّب وتتأمّل وتسمع فتفرح وتكتئب، هذه الروح التي تشعر فترتعش وتنبسط وتعلم فتكتئب وتتحقّق، هذه الروح التي تحيط بكلّ شيء سوف تضمحل

اضمحلال الفقاقيع على وجه البحر وتزول زوال الظلّ أمام النور. أي والحق إنّي أعجب لكائن ينكر كيانه.

نجيب متهيّجاً: قد آمنت بكياني يا سيّدتي. ومن يسمعك متكلّمة ولا يؤمن كان أشبه بالصخر منه بالإنسان.

العلويّة: إنّ الله وضع في كلّ نفس رسولاً ليسير بنا إلى النور، ولكن في الناس من يبحث عن الحياة في خارجه والحياة في داخله ولكنّه لا يعلم.

نجيب: أليس في خارجنا أنوار لا نستطيع بدونها الوصول إلى ما في أعماقنا؟ أليس في محيطنا قوى تستنهض قوانا ومؤثرات تنبّه الغافل فينا؟

يطرق هنيهة متردّداً ثمّ يعود يقول: أوَلم توحِ إليك روح والدك أموراً لا يعرفها سجين الجسد ورهين الأيّام واللّيالي؟

العلوية: أجل. ولكن عبثاً يطرق الزائر باب البيت إذا لمن يكن في داخل البيت من يسمع الطرقات ويقوم ليفتح في وجهه. إنّما الإنسان كائن منتصب بين اللانهاية في باطنه واللانهاية في محيطه. فلو لم يكن فينا ما فينا لما كان في خارجنا ما في خارجنا. لقد ناجتني روح والدي لأن روحي ناجتها وأوحت إلى عاقلتي الخارجيّة ما كانت تعرفه

عاقلتي الباطنيّة. فلولا جوعي وعطشي لما حصلت على الخبز والماء، ولولا شوقي وحنيني لما لقيت موضوع شوقي وحنيني.

نجيب: أيستطيع كلّ منّا يا سيّدتي أن يغزل سلكاً من شوقه وحنينه ويمدّه بين روحه والأرواح المنعتقة؟ أفليس هناك طائفة من الناس قد أُعطيت المقدرة على مخاطبة الأرواح واستنزال مشيئتها ومراميها؟

العلويّة: إن بين سكّان الأثير وسكّان الأرض مخاطبات ومسامرات مستتبّة باستتباب الأيّام واللّيالي. وليس بين النّاس من لم يأتمر بمشيئة القوى العاقلة غير المنظورة. فكم من عمل يأتي به الفرد متوهّماً أنّه مخيَّرا بفعله وهو بالحقيقة مسيَّر. وكم من عظيم في الأرض كانت عظمته في استسلامه التام إلى إرادة روح من الأرواح استسلام قيثارة دقيقة الأوتار إلى نقرات عازف خبير. أجل. إن بين عالم المرئيات وعالم العقل سبيلاً نجتازه في غيبوبات تحدث لنا ونحن غافلون ثمّ نعود وفي أكفّنا المعنويّة بذور نلقيها في تربة حياتنا اليوميّة فتنبت أعمالاً جليلة أو أقوالاً خالدة، ولولا تلك السبل المفتوحة بين أرواحنا والأرواح الأثيريّة لما ظهر في الناس نبيّ ولا قام فيهم شاعر ولا سار بينهم عازف (ترفع صوتها عن ذي قبل) أقول، ومآتي الأدهار تشهد لي، إن بين الملإ الأعلى والملإ الأدنى روابط شبيهة

بعلاقة الآمر بالمأمور والمنذِر بالمنذَر، أقول إنّا محاطون بوجدانات تستميل وجداناتنا، وعاقلات توعز إلى عاقلاتنا، وقوى تستنهض قوانا، أقول إن شكوكنا لا تنفي امتثالنا إلى ما نشك به، وانصرافنا إلى أماني أجسادنا لا يصرفنا عن مراد الأرواح بأرواحنا، وتعامينا عن حقيقتنا لا يحجب حقيقتنا عن عيون المحجوبين عنّا، فنحن وإن وقفنا فسائرون بمسيرهم، وإن همدنا فمتحركون بحركاتهم، وإن صمتنا فمتكلّمون بأصواتهم، فلا الهجوع فيها يزيل يقظتهم عنّا. ولا اليقظة بنا تحوّل أحلامهم عن مسارح خيالنا، فنحن وهم في عالمين يضمّهما عالم واحد، وفي حالتين تمنطقهما حالة واحدة، وفي وجودين يجمعهما ضمير كلّي سرمدي أحدٌ ليس له بدء وليس له نهاية وليس له فوق وليس له تحت وليس له حد وليس له جهات.

نجيب: أيأتي يوم يا سيّدتي نعرف فيه بالاستقراء العلمي والاختبار الحسّي ما تعرفه أرواحنا بالخيال وما تختبره قلوبنا بالتشويق؟ وهل يتقرّر لنا بقاء الذات المعنويّة بعد الموت مثلما تقرّر لدينا بعض الأسرار الطبيعيّة فنلمس بيد المعرفة المجرّدة ما نتلمسه الآن بأصابع الأيمان؟

العلويّة: نعم سيأتي ذلك اليوم. ولكن ما أضلّ الذين يدركون حقيقة مجرّدة ببعض حواسهم ولكنّهم يظلّون مرتابين بها حتى تبدو

لحواسهم الأخرى. ما أغرب من يسمع الشحرور مغرّداً ويشاهده مرفرفاً متنقّلاً ولكنّه يبقى مشّككاً بما سمع وما رأى حتى يقبض بيده على جسم الشحرور. ما أغرب من يحلم بحقيقة جميلة ثمّ يحاول تجسيدهَا وحبسها بقوالب الظواهر فلا يفلح فيرتاب بالحلم ويجحد الحقيقة ويشك بالجمال! ما أجهل من يتخيّل أمراً ويتصوّره بشكله ومعالمه وعندما يستحيل عليه إثباته بالمقاييس السطحيّة والبراهين اللفظيّة يحسب الخيال وهماً والتصوّر شيئاً فارغاً. ولكن لو تعمّق قليلاً وتأمّل هنيهة لعلم أن الخيال حقيقة لم تتحجّر بعد وأن التصوّر معرفة أسمى من أن تتقيّد بسلاسل المقاييس وأعلى وأرحب من أن تسجن بأقفاص الألفاظ.

نجيب: أفي كلّ خيال حقيقة يا سيّدتي وهل في كل تصورّ معرفة؟

العلويّة: إي والحق، إن مرآة النفس لا تعكس سوى ما انتصب أمامها، ولو شاءت لما استطاعت. إن البحيرة الهادئة لا تريك في أعماقها خطوط جبال ورسوم أشجار وأشكال غيوم لا وجود لها بالحقيقة، ولو شاءت البحيرة لما استطاعت. إن خلايا الروح لا ترجع إليك صدى أصوات لم يرتعش بها الأثير حقاً، ولو شاءت الخلايا لما استطاعت. إن النور لا يلقي على الأرض ظلّ شيء لا كيان له، ولو

شاء النور لما استطاع، إنّما الإيمان بالشيء المعرفة بالشيء. والمؤمن يرى ببصيرته الروحيّة ما لا يراه الباحثون والمنقبون بعيون رؤوسهم، ويدرك بفكرته الباطنة ما لا يستطيعون إدراكه بفكرتهم المقتبسة. المؤمن يختبر الحقائق القدسيّة بحواس تختلف عن الحواس التي يستخدمها الناس كافة فيظنّها جداراً محكم البناء فيسير في طريقه قائلاً: ليس لهذه المدينة من أبواب.

(تقف العلويّة وتخطو بضع خطوات نحو نجيب، وبلهجة من أوشك أن يبلغ من الكلام حدًّا لا يريد الزيادة عليه تقول)

العلويّة: إن المؤمن يعيش كلّ الأيّام وكلّ الليالي، أما غير المؤمن فلا يعيش سوى ثوانٍ معددة منها، فما أضيق عيش من يرفع يده بين وجهه والعالم أجمع فلا يرى غير الخطوط في كفّه، وما أشد شفقتي على من يدير ظهره إلى الشمس فلا يرى غير ظلّ جسده على التراب.

نجيب – ينتصب واقفاً شاعراً بدنو ساعة انصرافه: أأقول للنّاس يا سيّدتي عندما أعود إليهم إن إرم ذات العماد مدينة أحلام روحيّة وإن آمنة العلويّة قد سارت إليها على سبيل الشوق ودخلتها من باب الإيمان؟

العلويّة: قل إن إرم ذات العماد مدينة حقيقية كائنة بكيان الجبال والغابات والبحار والصحاري. وقل إن أمنة العلويّة قد وصلت إليها بعد أن قطعت البادية الخالية وقاست ألم الجوع وحرقة العطش وكآبة الوحدة وهول الإنفراد. وقل إن جبابرة الدهور قد بنوا إرم ذات العماد ممّا تبلور وتجوهر من عناصر الوجود، ولم يحجبوها عن الناس ولكن الناس حجبوا نفوسهم عنها، فمن يضل الوصول إليها فليشك دليله وحاديه بدلاً من مصاعب الطريق وحراجتها. وقل للنّاس إن من لا يشعل سراجه لا يرى في الظلام سوى الظلام. (ترفع وجهها نحو العلاء وتغمض عينيها ويظهر على ملامحها نقاب من العطف والحلاوة).

نجيب: يدنو منها منحني الرأس ويظلّ صامتاً هنيهة ثمّ يقبّل يدها هامساً: ها قد بلغت الشمس الغروب وعليّ أن أعود إلى مساكن الناس قبل أن يكتنف الظلام الطريق.

العلويّة: سر في النور وسر بأمان الله.

نجيب: سأسير في نور المشعل الذي وضعته في يدي يا سيّدتي.

العلويّة: سر بنور الحق الذي لا تطفئه الأهوية. (تنظر إليه نظرة طويلة مفعمة بشعاع الأمومة ثمّ تتحوّل عنه وتمشي بين الأشجار حتى تنحجب عن عينيه).

زين العابدين – يقترب من نجيب: إلى أين أنت سائر الآن؟

نجيب: إلى منزل أصحاب لي بقرب منبع العاصي.

زين العابدين: أتسمح لي بمرافقتك؟

نجيب: بكلّ سرور، ولكني ظننت أنّك باقٍ بجوار آمنة العلويّة فطوبتك روحي وتمنّيت لو كنت مكانك.

زين العابدين: نحن نحيا بنور الشمس عن بعد ولكن من منّا يستطيع الحياة في الشمس؟ (بلهجة ذات معانٍ بعيدة) أجيء مرّة في الأسبوع متبرّكاً متزوداً، وعندما يأتي المساء أعود قانعاً مكتفياً.

نجيب: وددت لو جاء الناس كافة مرّة في الأسبوع ليتبرّكوا ويتزوّدوا ويعودوا قانعين مطمئنّين. (يحلّ نجيب مقود فرسه ويسير به راجلاً بجانب زين العابدين).

(الستار)

obeikandl.com

مقالات متنوعة

obeikandl.com

إلى المسلمين من شاعر مسيحي

أنا لبنانيٌ ولي فخرٌ بذلك، ولست بعثمانيّ ولـــي فخـــرٌ بـــذلك أيضاً. لي وطنٌ أعتز بمحاسنه، ولي أمَّة أتباهي بمآتيها، ولـــيس لـــي دولة أنتمي إليها وأحتمي بها.

أنا مسيحيٌ ولي فخر بلك ولكنني أهوى النبيّ العربي وأُكبـــرُ اسمه وأحب مجد الإسلام وأخشى زواله، أنا شرقي ولي فخـــرٌ بـــذلك ومهما أقصتني الأيام عن بلادي أظلُّ شرقيَّ الأخلاق سوريّ الأميـــال لبنانيّ العواطف. أنا شرقي وللشرق مدنية قديمـــة العهـــد ذات هيبـــة سحرية ونكهة طيبة عطرية ومهما أُعجب برقيّ الغربيين ومعـــارفهم يبقَ الشرق موطناً لأحلامي ومسرحاً لأمانيّ وآمالي.

في تلك البلاد الممتدة من قلب الهند إلـــى جزائـــر العـــرب، المنبسطة من الخليج الفارسي إلى جبال القوقاس، في تلك البلاد أنبتت الملوك والأنبياء والأبطال والشعراء، في تلك البلاد المقدسة تتراكض روحي شرقاً وغرباً وتتسارع قبلة وشمالاً مرددة أغاني المجد القـــديم، محدقة إلى الأفق لترى طلائع المجد الجديد.

بينكم أيها الناس من يلفظ اسمي مشفوعاً بقوله: ﴿هو فتى جحود يكره الدولة العثمانية ويرجو اضمحلالها﴾.

إي والله لقد صدقوا، فأنا أكره الدولة العثمانية لأنني أحب العثمانيين، أنا أكره الدولة العثمانية لأني أحترق غيرةً على الأمم الهاجعة في ظل العلم العثماني.

أنا أكره الدولة العثمانية لأنني أحب الإسلام وعظمة الإسلام ولي رجاء برجوع مجد الإسلام.

أنا لا أحب العلّة، ولكنني أحب الجسد المعتلّ، أنا أكره الشلل ولكنني أحب الأعضاء المصابة به...

أنا أجلُّ القرآن ولكنني أزدري من يتخذ القرآن وسيلة لإحباط مساعي المسلمين كما أنني أمتهن الذين يتخذون الإنجيل وسيلة للحكم برقاب المسيحيين.

وأيٌّ منكم أيها الناس لا يكره الأيدي التي تهدم، حباً للسواعد التي تبني؟

أي بشريّ يرى العزم نائماً ولا يطلب إيقاظه؟ أي فتى يرى العظمة متراجعة إلى الوراء ولا يخشى انحجابها؟

إذاً، ماذا يغركم أيها المسلمون بالدولة العثمانية وهي اليد التي هدمت مباني أمجادكم بل هي الموت الذي يراود وجودكم؟

أوَ لم تنتهِ المدنية الإسلامية ببدء الفتوحات العثمانية؟

أوَ لم يتقهقر أمراء العرب بظهور سلاطين المغول؟

أوَ لم ينحجب العلم الأخضر وراء ستار من الضباب بظهور العلم الأحمر فوق رابية من الجماجم؟

خذوها يا مسلمون، كلمةً من مسيحيّ أسكن ﴿يسوع﴾ في شطر من حشاشته و﴿محمداً﴾ في الشطر الآخر!

إن لم يتغلّب الإسلام على الدولة العثمانية، فسوف تتغلّب أمم الإفرنج على الإسلام ...

إن لم يقم فيكم من ينصر الإسلام على عدوّه الداخلي فلا ينقضي هذا الجيل إلا والشرق في قبضة ذوي الوجوه البائخة والعيون الزرقاء ...[*]

[*] جبران حيّاً وميتاً ص٣٧ – ٣٨.

openkanar.com

لكم فكرتكم ولي فكرتي

كلنا فقير ولا غنيٌ سوى الحياة. وكلنا مُستعطٌ ولا واهــب إلا الحياة لكم فكرتكم ولي فكرتي.

لكم فكرتكم شجرةً صلبة تتمسك عروقها بتربة التقاليد وتنمــو فروعها بقوة الاستمرار ولي فكرتي سحابةً تتهادى في الفضاء ثم تهبط قطراً ثم تسيل جدولاً إلى البحر ثم تتصاعد ضباباً نحو الأعالي.

لكم فكرتكم برجاً متيناً راسخاً لا تهزُّه الأنــواء ولا تحرّكــه العواصف، ولي فكرتي أعشاباً ليِّنة تميل إلى كل ناحية وتجد بميلهــا بهجةً وسروراً.

لكم فكرتكم مذهباً قديماً لا يغير ولا يتغير، ولي فكرتي بدعــة جديدة أغربلها وتغربلني كل صباح وكل مساء.

* * *

لكم فكرتكم ولي فكرتي

لكم من فكرتكم أن يصرع قويكم ضعيفكم، ويحتال داهيكم على ساذجكم، ولي من فكرتي أن أحــرث الأرض بمعــولي واســتثمرها

بمنجلي، وإن أبني بيتاً من الحجارة والطين، وأن أحوك ثوباً من الصوف أو الكتان.

لكم من فكرتكم مصاهرة الجاه والثروة، ولي من فكرتي الاتكال على النفس.

لكم من فكرتكم الجدّ وراء السمعة، والركض خلف الشهرة، ولي من فكرتي أن أطرح السمعة والشهرة حبتين من الرمل على شاطئ الأبدية.

لكم من فكرتكم أن تحملوا بصروحٍ أثاثها من الصندل المرصَّع ورياشها من الحرير المفتول، ولي من فكرتي أن أكون نظيف الروح والجسم حتى ولو كنت بدون مكان أسند إليه رأسي.

لكم من فكرتكم أن تكونوا موظفين ملقبين، ولي من فكرتي أن أكون خادماً نافعاً.

* * *

لكم فكرتكم ولي فكرتي

لكم من فكرتكم قواميسها الاجتماعية والدينية ومطالبها الفنية والسياسية، ولي من فكرتي أوليات قليلة بسيطة.

obeikandi.com

تقول فكرتكم: ﴿امرأة حسناء قبيحة، فاضلة عاهرة، حاذقة بليدة﴾، أما فكرتي فتقول:﴿كل امرأة والدة كل رجل، كلٌّ امرأة أختٌ كل رجل، كل امرأة ابنة كل رجل﴾.

تقول فكرتكم: ﴿لصٌّ، مجرم، قاتل، خبيث، عقوق﴾، أما فكرتي فتقول:﴿إنما اللص صنيعة المحتكر، والمجرم خليقة الظالم، والقاتل حليف القتيل، والخبيث ثمرة العربيد، والعقوق نتيجة الصارم﴾.

تقول فكرتكم: ﴿شرائع، محاكم، قضاة، عقوبات﴾. إذا كان ثمَّ من شريعة وضعية فكلنا يخالفها أو كلنا يخضع لها. وإن كان من ناموس أساسي فكلنا واحد أمام ذلك الناموس، فمن يتأفف من الساقطين كان منهم، ومن يلمُّ أذياله كيلا تلامس المنطرحين على الأوحال كان مغموراً بالأوحال. أما الذي يفاخر بترفعه عن العثور والزلل فإنما يفاخر بترفع الإنسانية جمعاء، والذي يتبجح بعصمته إنما يتبجح بعصمة الحياة نفسها.

تقول فكرتكم: ﴿الماهر، المتفنن، الأستاذ، النابغة، العبقري، الفيلسوف، الإمام﴾ أما فكرتي فتقول:﴿الودود، المحب، الحليف، الصادق، المستقيم، المضحي، المستشهد﴾.

تقول فكرتكم: ﴿الموسوية، البرهمية، البوذية، المسيحية، الإسلام﴾. أما فكرتي فتقول:﴿ليس هناك سوى دين واحد مجرّد مطلق تعدَّدت مظاهره وظل مجرّداً، وتشعَّبت سبله ولكن مثلما تتفرّع الأصابع من الكف الواحدة﴾.

تقول فكرتكم: ﴿الكافر، المشرك، الدهري، الخارجي، الزنديق﴾. أما فكرتي فتقول:﴿الحائر، التائه، الضعيف، الضرير، اليتيم بعقله وروحه﴾.

وتقول فكرتكم: ﴿الغني، الفقير، الواهب، المستعطي﴾. أما فكرتي فتقول:﴿كلنا فقيرٌ ولا غنيٌ سوى الحياة، كلنا مستعطٍ ولا واهبٌ إلا الحياة﴾.

* * *

obeikandl.com

لكم فكرتكم ولي فكرتي

تدّعي فكرتكم أن الأُمم بالسياسية والأحزاب والمؤتمرات والتقارير والمعاهدات. أما فكرتي فتحتم أن الأمم بالعمل، العمل في الحقل وفي الكرم، العمل أمام النول وفي المصبغة، العمل في المقلع وفي الغاب، العمل في المكتب وفي المطبعة.

وتحسب فكرتكم أن أمجاد الشعوب بأبطالها الفاتحين فتترنّم بذكر نمرود ونبوخذ نصر ورعمسيس والاسكندر وقيصر وهنيبال ونابليون. أما فكرتي فتقرر أن الأبطال هم كنفوشيوس وليوتسي وافلاطون وعلي بن أبي طالب والغزاليّ وجلال الدين الرومي وكوبرنيكوس وباستور.

وترى فكرتكم القوة الغالبة بالفيالق والمدافع والمدرعات والغوّاصات والطيارات والغازات السامة. أما فكرتي فتجزم أن لا قوة إلا بالحق ولا عزم إلا للحقيقة ومهما طال عهد المنتصرين بالقوة العضلية والآلية فهم المغلوبون في النهاية.

وتفصل فكرتكم بين العملي والخيالي وبين الصوفي والماديّ. أما فكرتي فتعلم أن للحياة وحدانيّة ذات أوزان وقياسات وجداول لا

تنطبق على أوزانكم وقياساتكم وجداولكم. فربَّ من تعدونه خيالياً كان من العمليين وربّ من تحسبونه مادياً كان من الواهمين الموهمين.

* * *

لكم فكرتكم ولي فكرتي

لكم فكرتكم فاتبعوها متنقلة بين الخرائب ومتاحف المحنطات والمحجرات، ولي فكرتي وأنا أرقبها مرفرفةً بين الضباب والسديم.

لكم فكرتكم فمجّدوها جالسة على عرش من الجماجم، ولي فكرتي وأنا أتأملها هائمة في الأودية البعيدة المجهولة.

لكم فكرتكم فاثنوا عليها مزمّرة وافرحوا بنفوسكم راقصين، ولي فكرتي وفكرتي تؤثر حشرجة النزع على تزميركم والسجون على مراقصكم.

لكم فكرتكم وهي فكرة جميع المستأنسين المتآلفين المرتاحين، ولي فكرتي وهي فكرة كل ضائع في مسقط رأسه وكل غريب في أمته، وكل مستوحش بين أهله وخلانه.

لكم فكرتكم ولي فكرتي[*].

---

[*] الهلال، ١٩٢٤–١٩٢٥ (مجلد ٣٣).

يا أخي السوري

يا أخي السوري

أنت أخي لأنك سوري والبلاد التي لفظتك كلمة في مسامع الأبدية قد همستني كلمة أخرى.

أنت أخي لأن البلاد التي حبلت بك ولدتني والفضاء الذي حمل أول صرخة خرجت من أعماقك يحمل أول صرخة تمخضت بها أحشائي. أنت أخي لأنك مرآتي فكلما نظرت إلى وجهك رأيت ذاتي بكل ما في ذاتي من العزم والضعف ومن الائتلاف والتشويش، ومن الهجوع واليقظة.

أنت أخي لأني ما فكرت بأمر إلا ورأيت عناصره تتموج في فكرتك وما سعيت إلى أمر إلا ورأيتك سائراً إليه وما تقاعدت عن أمر لأنك منصرف عنه.

أنت أخي بيسوع وموسى ومحمد.

أنت أخي بكوارث خمسين قرناً.

أنت أخي بالقيود التي جرها آباؤنا وأجدادنا.

أنت أخي بالنير الثقيل الذي أثقل عاتقنا.

أنت أخي بالألم والدموع ومن تجمعهم نكبات الدهور وأوجاعها لن تفرقهم أمجاد الدهور وأفراحها.

أنت أخي أمام قبور ماضينا وأمام مذبح مستقبلنا.

* * *

يا أخي السوري

بالأمس وقد كان الضباب يغمر وجداني كنت ألومك وأعنّفك.

واليوم وقد بددت الريح ذاك الضباب علمت أنني لم ألم سوى ذاتي ولم أعنف غير نفسي. فما استهجنته بالأمس بك أراه اليوم بي. وما كرهته في أخلاقك قد ألفته معانقاً أخلاقي. وما حاولت اقتلاعه من روحك وجدت عرقه متمسكة بروحي.

نحن متساويان في كل ما جلبته الحياة إلى ماضينا وكل ما ستجلبه إلى حاضرنا.

نحن متساويان في كل ما آل إلى شقائنا وما يؤول إلى سعادتنا.

obeikandl.com

نحن متساويان وما الفرق بيننا سوى إنك كنت هادئـاً سـاكناً متجلداً أمام مصابك بينما أنا كنت أصرخ متسرعاً وأصيح قانطاً فـي مصابي.

والآن وقد عرفتك وعرفت ذاتي، صرت إن رأيت عيباً فيـك أنظر إلى نفسي فأرى ذلك العيب فيها.

يا أخي السوري

أنت مصلوب ولكن على صدري والمسامير التي تثقب كفيـك وقدميك تخترق حجاب قلبي.

وغداً إذا ما مر عابر طريق بهذه الجلجلة لا يميز بين قطرات دمك وقطرات دمي بل يسير في طريقه قائلاً: ههنـا صـلب رجـل واحد(*).

(*) السائح – ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠.

obeikandl.com

نشيد الإنسان

﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم
ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾[٢٨]
(القرآن الشريف)

أنا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء.

سبحت في فضاء اللانهاية، وطرت في عالم الخيال، واقتربت من دائرة النور الأعلى، وها أنا الآن سجين المادة.

سمعت تعاليم كنفوشيوس، وأصغيت لحكمة برهما، وجلست بقرب بوذا تحت شجرة المعرفة، وها أنا الآن أُغالب الجهل والجحود.

كنت على الطور إذ تجلّى ﴿يهوه﴾ لموسى، وفي عبر الأردن فرأيت معجزات الناصرى وفي المدينة فسمعت أقوال رسول العرب، وها أنا الآن أسير الحيرة. شاهدت قوّة بابل، ومجد مصر، وعظمة اليونان، ولم أزل أرى الضعف والذل والصغر بادية في جميع تلك الأعمال. جالست سحرة عين دور، وكهنة آشور، وأنبياء فلسطين، وما برحت أنشد الحقيقة. حفظت الحكمة التي نزلت على الهند، واستظهرت الشعر

---

[٢٨] سورة البقرة الآية: ٢٨.

obeikandl.com

المنبثق من قلوب سكّان جزيرة العرب، ووعيت الموسيقى المتجسمة من عواطف أهل المغرب، وما زلت أعمى لا أرى، وأصمّ لا اسمع. احتملت قساوة الفاتحين الطامعين، وقاسيت ظلم الحكّام المستبدينّ وعبودية الأقوياء الباغين، وما برحت ذا قوّة أُكافح بها الأيّام.

شاهدت وسمعت كلّ ذلك وأنا طفل، ولسوف أشاهد وأسمع أعمال الشبيبة ومآتيها، ولسوف أشيخ وأبلغ الكمال وأرجع إلى الله.

أنا كنت من الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء.

ابن سينا وقصيدته

ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي وأقرب إلى ميولي النفسيّة من قصيدة ابن سينا في النفس.

في هذه القصيد النبيلة قد وضع الشيخ الرئيس أبعد ما يراود فكرة الإنسان وأعمق ما يلازم خياله من الأماني التي تولّدها المعرفة، والسؤالات التي يثمرها الرجاء، والنظريات التي لا تصدر إلاّ عن التفكّر المستمرّ والتأمّلات الطويلة.

وليس من الغرائب صدور هذه القصيدة عن وجدان ابن سينا وهو نابغة زمانه، ولكن من الغرائب أن تكون مظهراً لرجل صرف عمره مستقصياً أسرار الأجسام ومزايا الهيولي. فكأنّي به قد بلغ خفايا الروح عن طريق المادة وأدرك مكنونات المعقولات بواسطة المرئيات، فجاءت قصيدته هذه برهاناً نيّراً على أن العلم هو حياة العقل يتدرّج بصاحبه من الاختبارات العمليّة إلى النظريات العقليّة، إلى الشعور الروحي، إلى الله.

قد يجد المطالع في ما نظمه كبار شعراء الغربيّن مقاطع تذكّره بهذه القصيدة السامية. ففي روايات شكسبير الخالدة أبيات لا تختلف بمعانيها عن قول ابن سينا.

وَصَلَتْ على كرْهٍ إليكِ وربُّمـــا

كرهتْ فراقــك وهي ذاتُ تفجّعِ

وفي أقوال تشلي ما يماثل:

سجعتْ وقد كُشفَ الغطاء فأبصرَتْ

مـــا لَيس يُـــدرَكُ بالعُيـــونِ الهُجَعِ

وفي تأملات غوتي ما يضارع:

وتَعـــودُ عـــالمَـــــةً بكُـــلّ خفيِّـــــةٍ

في العـــالميـــنَ، فخرْقهـــا لـــم يُرْقَعِ

وفي ما قاله براونن ما يضاهي:

فكأنّهـــا بَـــرْقٌ تـــألّـــقَ بالحِمـــى

ثمّ انطـــــوَى فكأنـــّهُ لمّ يلَمـــــعِ

ولكن الشيخ الرئيس قد تقدّم جميع هؤلاء بقرون عديدة. فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصورة متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنه

obeikandl.com

مختلفة. وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جـــاءت بعـــده، ويجعل قصيدته في النفس أبعد وأشرف ما نظم فـــي أشـــرف وأبعـــد موضوع.

obeikandl.com

(ابن سينا)

بريشة جبران خليل جبران

مستقبل اللغة العربية

أولاً– ما هو مستقبل اللغة العربية؟

إنّما اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الأمّة، أو ذاتها العامّة، فإذا هجعت قوّة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها، وفي الوقوف التقهقر وفي التقهقر الموت والاندثار.

إذاً فمستقبل اللغة العربيّة يتوقّف على مستقبل الفكر المبدع الكائن –أو غير الكائن– في مجموع الأمم التي تتكلم اللغة العربيّة. فإن كان ذلك الفكر موجوداً كان مستقبل اللغة عظيماً كماضيها، وإن كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتها السريانيّة والعبرانيّة.

وما هذه القوّة التي ندعوها بقوّة الابتكار؟

هي في الأمّة عزمٌ دافع إلى الأمام. هي في قلبها جوع وعطش وشوق إلى غير المعروف، وفي روحها سلسلة أحلام تسعى إلى تحقيقها ليلاً ونهاراً ولكنّها لا تحقّق حلقة من أحد طرفيها إلاّ أضافت الحياة حلقة جديدة في الطرف الآخر. هي في الأفراد النبوغ وفي الجماعة الحماسة، وما النبوغ في الأفراد سوى المقدرة على وضع ميول الجماعة الخفيّة في أشكال ظاهرة محسوسة. ففي الجاهلية كان

الشاعر يتأهبّ لأن العرب كانوا في حالة التأهّب، وكان ينمو ويتمدّد أيّام المخضرمين لأن العرب كانوا في حالة النموّ والتمدّد، وكان يتشعّب أيّام المولّدين لأن الأمّة الإسلاميّة كانت في حالة التشعّب. وظلّ يتدرّج ويتصاعد ويتلوّن فيظهر آناً كفيلسوف، وآونة كطبيب، وأخرى كفلكيّ، حتى راود النعاس قوّة الابتكار في اللغة العربيّة فنامت وبنومها تحوّل الشعراء إلى ناظمين والفلاسفة إلى كلاميّين والأطبّاء إلى دجّالين والفلكيّون إلى منجّمين.

إذا صحّ ما تقدّم كان مستقبل اللغة العربيّة رهن قوّة الابتكار في مجموع الأمم التي تتكلّمها، فإن لتلك الأمم ذات خاصّة أو وحدة معنويّة وكانت قوّة الابتكار في تلك الذات قد استيقظت بعد نومها الطويل كان مستقبل اللغة العربيّة عظيماً كماضيها، وإلاّ فلا.

* * *

ثانياً– وما عسى أن يكون تأثير التمدين الأوروبي والروح الغربيّة فيها؟

إنّما التأثير شكل من الطعام تتناوله اللغة من خارجها فتمضغه وتبتلعه وتحوّل الصالح منه إلى كيانها الحي كما تحوّل الشجرة النور والهواء وعناصر التراب إلى أفنان فأوراق فأزهار فأثمار. ولكن إذا

كانت اللغة بدون أضراس تقضم ولا معدة تهضم فالطعام يذهب سدى بل ينقلب سمًّا قاتلاً. وكم من شجرة تحتال على الحياة وهي في الظلّ فإذا ما نقلت إلى نور الشمس ذبلت وماتت. وقد جاء: من لـه يعطـى ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه.

وأمّا الروح الغربيّة فهي دور من أدوار الإنسان وفصل مـن فصول حياته. وحياة الإنسان موكب هائل يسير دائماً إلى الأمام، ومن ذلك الغبار الذهبي المتصاعد من جوانـب طريقـه تتكـوّن اللغـات والحكومات والمذاهب. فالأمم التي تسير في مقدّمة هذا الموكب هـي المبتكرة، والمبتكر مؤثّر؛ والأمم التي تمشي في مؤخرته هي المقلِّدة، والمقلِّد يتأثّر، فلمّا كان الشرقيون سابقين والغربيّـون لاحقـين كـان لمدنيتنا التأثير العظيم في لغاتهم، وها قد أصبحوا هم السابقين وأمسينا نحن اللاحقين فصارت مدنيتهم بحكم الطبع ذات تأثير عظيم في لغتنا وأفكارنا وأخلاقنا.

بيد أن الغربيين كانوا في الماضـي يتنـاولون مـا نطبخـه فيمضغونه ويبتلعونه محوّلين الصالح منه إلى كيانهم الغربـي، أمـا الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولكنه لا يتحوّل إلى كيانهم بل يحولهم إلى شبه غربيين، وهي حالـة

أخشاها وأتبرّم منها لأنها تبين لي الشرق تارة كعجوز فقد أضراسه وطوراً كطفل بدون أضراس!

إن روح الغرب صديق وعدوّ لنا. صديق إذا تمكنّا منه وعدوّ إذا تمكن منّا. صديق إذا فتحنا له قلوبنا وعدوّ إذا وهبنا له قلوبنا. صديق إذا أخذنا منه ما يوافقنا وعدوّ إذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه.

* * *

ثالثاً- وما يكون تأثير التطوّر السياسي الحاضر في الأقطار العربيّة؟

قد أجمع الكتّاب والمفكّرون في الغرب والشرق على أن الأقطار العربيّة في حالة التشويش السياسي والإداري والنفسي. ولقد اتفق أكثرهم على أن التشويش مجلبة الخراب والاضمحلال.

أمّا أنا فأسأل: هل هو تشويش أم ملل؟

إن كان مللاً فالملل نهاية كلّ أمّة وخاتمة كلّ شعب – الملل هو الاحتضار في صورة النعاس، والموت في شكل النوم.

obeikandl.com

وإن كان بالحقيقة تشويشاً فالتشويش في شرعي ينفع دائماً لأنّه يبين ما كان خافياً في روح الأمّة ويبدل نشوتها بالصحو وغيبوبتها باليقظة ونظير عاصفة تهزّ بعزمها الأشجار لا لتقلعها بل لتكسر أغصانها اليابسة وتبعثر أوراقها الصفراء. وإذا ما ظهر التشويش في أمّة لم تزل على شيء من الفطرة فهو أوضح دليل على وجود قوّة الابتكار في أفرادها والاستعداد في مجموعها. إنّما السديم أوّل كلمة من كتاب الحياة وليس بآخر كلمة منها' وما السديم سوى حياة مشوشة.

إذاً فتأثير التطوّر السياسي سيحوّل ما في الأقطار العربيّة من التشويش إلى نظام، وما في داخلها من الغموض والإشكال إلى ترتيب وأُلفة، ولكنّه لا ولن يبدل مللها بالوجد وضجرها بالحماسة. إن الخزّاف يستطيع أن يصنع من ا لطين جرّة للخمر أو للخل ولكنّه لا يقدر أن يصنع شيئاً من الرمل والحصى.

رابعاً– هل يعمّ انتشار اللغة العربيّة في المدارس العالية وغير العالية وتعلّم بها جميع العلوم؟

لا يعمّ انتشار اللغة في المدارس العالية وغير العالية حتى تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنيّة مجرّدة – ولن تعلّم بها جميع العلوم حتى تنتقل المدارس من أيدي الجمعيات الخيريّة واللجان الطائفيّة والبعثات الدينيّة إلى أيدي الحكومات المحليّة.

ففي سوريا مثلاً كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة، وقد كنّا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأنّنا جياع متضوّرون، ولقد أحيانا ذلك الخبز. ولما أحيانا أماتنا. أحيانا لأنه أيقظ جميع مداركنا ونبّه عقولنا قليلاً، وأماتنا لأنّه فرّق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب كلّ مستعمرة منها تشدّ في حبل إحدى الأمم الغربيّة وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها. فالشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أمريكية قد تحوّل بالطبع إلى معتمد أمريكي، والشاب الذي تجرع رشفة من العلم في مدرسة يسوعيّة صار سفيراً فرنسيّاً، والشاب الذي لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسيّة أصبح ممثلاً لروسيا .... إلى آخر ما هناك من المدارس وما تخرجه في كلّ عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء. وأعظم دليل على ما تقدّم اختلاف الآراء وتباين المنازع في الوقت الحاضر في مستقبل سوريا السياسي. فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الإنكليزية يريدون أمريكا أو انكلترا وصية على بلادهم؛ والذين درسوها باللغة الفرنسيّة يطلبون فرنسا أن تتولّى أمرهم؛ والذين لم يدرسوا بهذه اللغة أو بتلك لا يريدون هذه الدولة ولا تلك بل يتبعون سياسة أدنى إلى معارفهم وأقرب إلى مداركهم.

وقد يكون ميلنا السياسي إلى الأمّة التي نتعلّم على نفقتها دليلاً على عاطفة عرفان الجميل في نفوس الشرقّيين، ولكن ما هذه العاطفة

التي تبني حجراً من جهة واحدة متهدم جداراً من الجهة الأخرى؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهراً؟

إن المحسنين الحقيقّيين وأصحاب الأريحيّة في الغرب لم يضعوا الشوك والحسك في الخبز الذي بعثوا به إلينا، فهم بالطبع قد حاولوا نفعنا لا الضرر بنا. ولكن كيف تولد ذلك الشوك ومن أين أتَى ذلك الحسك؟ هذا بحث آخر أتركه إلى فرصة أخرى.

نعم سوف يعمّ انتشار اللغة العربيّة في المدارس العالية وغير العالية وتعلّم بها جميع العلوم فتتوحّد ميولنا السياسيّة وتتبلور منازعنا القوميّة لأن في المدرسة تتوّحد الميول وفي المدرسة تتجوهر المنازع، ولكن لا يتمّ هذا حتى يصير الواحد منّا ابناً لوطن واحد بدلاً من وطنين متناقضين أحدهما لجسده والآخر لروحه. لا يتمّ هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا، لأنّ المتسوّل المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدّق الأريحي. ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب، فالموهوب مسيّر دائماً والواهب مخيّر أبداً.

* * *

خامساً: وهل تتغلّب (اللغة العربيّة الفصحى) على اللهجات العامية المختلفة وتوحدها؟

إن اللهجات العامية تتحوّر وتتهذّب ويُدلك الخشن فيها فيلين ولكنّها لا ولن تغلب –ويجب ألاّ تُغْلب– لأنّها مصدر ما ندعوه فصيحاً من الكلام ومنبت ما نعدّه بليغاً من البيان.

إن اللغات تتبع مثل كلّ شيء آخر سنّة بقاء الأنسب، وفي اللهجات العامية الشيء الكثير من الأنسب الذي سيبقى لأنه أقرب إلى فكرة الأمّة وأدني إلى مرامي ذاتها العامة. قلت إنّه سيبقى وأعني بذلك انّه سيلتحم بجسم اللغة ويصير جزءاً من مجموعها.

لكلّ لغة من لغات الغرب لجهات عامية، ولتلك اللهجات مظاهر أدبيّة وفنيّة لا تخلو من الجميل المرغوب والجديد المبتكر، بل في أوروبا وأمريكا طائفة من الشعراء الموهوبين الذين تمكّنوا من التوفيق بين العامي والفصيح في قصائدهم وموشحاتهم فجاءت بليغة ومؤثرة: وعندي أن في الموال والزجل و«العتابا» و«المعنّى» من الكنايات المستجدة والاستعارات المستملحة والتعابير الرشيقة المستنبطة ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة، والتي تملأ جرائدنا ومجلاتنا، لبانت كباقة من الرياحين بقرب رابية من الحطب،

أو كسرب من الصبابا الراقصات المترنمات قبالة مجموعة من الجثث المحنّطة.

لقد كانت اللغة الإيطالية الحديثة لهجةً عاميّة في القرون المتوسطة، وكان الخاصة يدعونها بلغة ﴿الهمج﴾، ولكن لما نظم بها دانتي وبتراك وكامونس وفرانسيس داسيزي قصائدهم وموشحاتهم الخالدة أصبحت تلك اللهجة لغة إيطاليا الفصحى وصارت اللاتينيّة بعد ذلك هيكلاً يسير ولكن في نعش على أكتاف الرجعيّين ... وليست اللهجات العامية في مصر وسوريا والعراق أبعد عن لغة المعرّي والمتنبي من لهجة ﴿الهمج﴾ الإيطالية عن لغة أوفيدي وفرجيل. فإذا ما ظهر في الشرق الأدنى عظيم ووضع كتاباً عظيماً في إحدى تلك اللهجات تحوّلت هذه إلى لغة فصحى. بيد أنّي أستبعد حدوث ذلك في الأقطار العربية لأن الشرقّيين أشدّ ميلاً إلى الماضي منهم إلى الحاضر أو المستقبل، فهم المحافظون، على معرفة منهم أو على غير معرفة، فإن قام كبير بينهم لزم في إظهار مواهبه السبل البيانية التي سار عليها الأقدمون، وما سبل الأقدمين سوى أقصر الطرقات بين مهد الفكر ولحده.

* * *

سادساً: وما هي خير الوسائل لإحياء اللغة العربيّة؟

إن خير الوسائل، بل الوسيلة الوحيدة لإحياء اللغة هي في قلب الشاعر وعلى شفتيه وبين أصابعه، فالشاعر هو الوسيط بين قوّة الابتكار والبشر، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس إلى عالم البحث، وما يقرّره عالم الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين.

الشاعر أبو اللغة وأمّها، تسير حيثما يسير وتربض أينما يربض، وإذا ما قضى جلست على قبره باكية منتحبة حتى يمرّ بها شاعر آخر ويأخذ بيدها. وإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمّها فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها.

أعني بالشاعر كلّ مخترع كبيراً كان أو صغيراً، وكلّ مكتشف قوياً كان أو ضعيفاً، وكلّ مختلق عظيماً كان أو حقيراً، وكل ّ محبّ للحياة المجرّدة إماماً كان أو صعلوكاً، وكلّ من يقف متهيّباً أمام الأيّام والليالي فيلسوفاً كان أو ناطوراً للكروم.

أمّا المقلّد فهو الذي لا يكتشف شيئاً ولا يختلق أمراً بل يستمدّ حياته النفسيّة من معاصريه ويصنع أثوابه المعنويّة من رقع يجزها من أثواب من تقدمه.

أعني بالشاعر ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلاً عن المحراث الذي ورثه عن أبيه فيجيء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد، وذلك البستاني الذي يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقالية اللون فيأتي بعده من يدعو الزهرة باسم جديد، وذلك الحائك الذي ينسج على نوله نسيجاً ذا رسوم وخطوط تختلف عن الأقمشة التي يصنعها جيرانه الحائكون فيقوم من يدعو نسيجه هذا باسم جديد. أعني بالشاعر الملاح الذي يرفع لسفينة ذات شراعين شراعاً ثالثاً، والبنّاء الذي يبني بيتاً ذا بابين ونافذتّين بين بيوت كلها ذات باب واحد ونافذة واحدة، والصبّاغ الذي يمزج الألوان التي لم يمزجها أحد قبله فيستخرج لوناً جديداً، فيأتي بعد الملاح والبنّاء والصبّاغ من يدعو ثمار أعمالهم بأسماء جديدة فيضيف بذلك شراعاً إلى سفينة اللغة ونافذة إلى بيت اللغة ولوناً إلى ثوب اللغة.

أمّا المقلّد فهو ذاك الذي يسير من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة ولا يحيد عنها مخافة أن يتيه ويضيع، ذاك الذي يتبع بمعيشته وكسب رزقه ومأكله ومشربه وملبسه تلك السبل المطروقة التي مشى عليها ألف جيل وجيل فتظلّ حياته كرجع الصدى ويبقى كيانه كظلّ ضئيل لحقيقة قصية لا يعرف عنها شيئاً ولا يريد أن يعرف.

أعني بالشاعر ذلك المتعبّد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكياً فرحاً نادباً مهللاً مصغياً مناجياً ثمّ يخرج وبين شفتيه ولسانه أسماء وأفعال وحروف واشتقاقات جديدة لأشكال عبادته التي تتجدّد في كلّ يوم وأنواع انجذابه التي تتغيّر في كلّ ليلة فيضيف بعمله هذا وتراً فضيّاً إلى قيثارة اللغة وعوداً طيّباً إلى موقدها.

أمّا المقلّد فهو الذي يردّد صلاة المصلّين وابتهال المبتهلين بدون إرادة ولا عاطفة فيترك اللغة حيث يجدها والبيان الشخصي حيث لا بيان ولا شخصية.

أعني بالشاعر ذاك الذي إن أحبّ امرأة انفردت روحه وتنحت عن سبل البشر لتلبس أحلامها أجساداً من بهجة النهار وهول الليل وولولة العواصف وسكينة الأودية ثمّ عادت لتضفر من اختباراتها إكليلاً لرأس اللغة وتصوغ من اقتناعها قلادة لعنق اللغة.

أمّا المقلّد حتى في حبّه وغزله وتشبيبه، فإن ذكر وجه حبيبته وعنقها قال: بدر وغزال. وإن خطر على باله شعرها وقدّها ولحظها قال: ليل وغصن بان وسهام. وإن شكا قال: جفن ساهر وفجر بعيد وعذول قريب. وإن شاء أن يأتي بمعجزة بيانية قال: حبيبتي تستمطر لؤلؤ الدمع من نرجس العيون لتسقي ورد الخدود وتعض على عناب أناملها ببرد أسنانها. يترنم صاحبنا الببغاء بهذه الأغنية العتيقة وهو لا

يدري أنّه يسمم ببلادته دسم اللغة ويمتهن بسخافته وابتذاله شرفها ونبالتها.

قد تكلّمت عن المستنبط ونفعه والعقيم وضرره ولم أذكر أولئك الذين يصرفون حياتهم بوضع القواميس وتأليف المطوّلات وتشكيل المجامع اللغوية –لم أقل كلمة عن هؤلاء لاعتقادي بأنّهم كالشاطئ بين مدّ اللغة وجزرها وأن وظيفتهم لا تتعدّى حدّ الغربلة– والغربلة وظيفة حسنة ولكن ما عسى يغربل المغربلون إذا كانت قوّة الابتكار في الأمّة لا تزرع غير الزوان ولا تحصد إلاّ الهشيم ولا تجمع على بيادرها سوى الشوك والقطرب؟.

أقول ثانية إنّ حياة اللغة وتوحيدها وتعميمها وكلّ ما له علاقة بها قد كان وسيكون رهن خيال الشاعر. فهل عندنا شعراء؟.

نعم عندنا شعراء، وكلّ شرقي يستطيع أن يكون شاعراً وفي بستانه وأمام نوله وفي معبده وفوق منبره وبجانب مكتبته. كلّ شرقي يستطيع أن يعتق نفسه من سجن التقليد والتقاليد ويخرج إلى نور الشمس فيسير في موكب الحياة. كلّ شرقيّ يستطيع أن يستسلم إلى قوّة الابتكار المختبئة في روحه، تلك القوة الأزلية الأبدية التي تقيم من الحجارة أبناء الله.

أمّا أولئك المنصرفون إلى نظم مواهبهم ونثرها فلهم أقول: ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصيّة مانع عن اقتفاء أثر المتقدمين، فخير لكم وللغة العربيّة أن تبنوا كوخاً حقيراً من ذاتكم الوضعيّة من أن تقيموا صرحاً شاهقاً من ذاتكم المقتبسة. ليكن لكم من عزّة نفوسكم زاجر عن نظم قصائد المديح والرثاء والتهنئة، فخير لكم وللغة العربيّة أن تموتوا مهملين محتقرين من أن تحرقوا قلوبكم بخوراً أمام الأنصاب والأصنام. ليكن لكم من حماستكم القوميّة دافع إلى تصوير العربيّة أن تتناولوا أبسط ما يتمثّل لكم من الحوادث في محيطكم وتلبسوها حلّة من خيالكم من أن تعرّبوا أجلّ وأجمل ما كتبه الغربيّون.

* * *

كلنا يصلي

كلنا يصلي، ولكن بعضنا يصلي بقصد ومعرفة، وبعضنا يصلي بدون قصد وبدون معرفة، فالقلب البشري يخفق صامتاً أمام اللانهاية القدسية ويخفق أمامها منشداً، فالسواقي تسير نحو الشاطئ ضيقاً كان الوادي أو منفرجاً، وتبلغ السواقي البحر مبرقا كان الفضاء بغيوم الشتاء أو مثقلاً بعطور الربيع.

الصلاة في ملتي كل رغبة في البقاء، وكل شوق إلى الحياة، وكل عزم محدود ينزع إلى عزم غير محدود، فما أول صرخة تخرج من صدر الطفل سوى صلاة الغيبوبة مع مسمع اليقظة، وما خجل الصبية ليلة عرسها سوى صلاة يرفعها الأمل المستوحد نحو ذلك الكيان العلوي المزدوج الذي ندعوه الأمومة، وما آخر تنهدة تتصاعد من قلب المحتضر سوى صلاة المعلوم المقرر نحو هيكل المجهول الخفي.

والصلاة في عقيدتي أمل عذب في حشاشة المزارع الذي يودع الأرض بذوره قائلاً في سره: ﴿بسم الله والاتكال على الله﴾.

والصلاة واجب لذيذ في عاقلة الراعي الذي يقود قطيعه إلى المروج الخضراء، وهي عمل مستطاب في روح الحائك الذي يجلس

إلى نوله متمثلاً قماشة رداء لصبية جميلة، أو غلافاً لعجوز تتقي بـــه البرد والزمهرير.

والصلاة بشرعي في أن يقف المرء متهيباً أمام الفجر، مبهوتاً عند الظهيرة، مسحوراً لدى الشفق، فإذا ما انتصف الليل هبت مكامنه وراحت تحمل تباشير السكوت والسلام إلى ما في خفايا الليل من سلام وسكوت.

الأزهار تصلي قبل أن ينبهها الربيع من رقادها. والأشـــجار تصلي والخريف ينثر أوراقها الصفراء على أديم الأرض ... وتصلي الأشجار بلهفة عندما يحاول الشتاء تكفين منازعها بثلوجه.

الطير يصلي قبل التغريد وبعده، والحيوان يصلي ساعياً إلـــى القوت ويصلي ملتجئاً إلى المغاور...

الجبال تصلي وأشعة الغـــروب تودعهـــا، والأوديـــة تصـــلي وضباب المساء يغمرها.

الصحراء تصلي وفي صلاتها غابات خضراء وينابيع متفجرة، والعقبات تصلي ومعنى صلاتها سهول وخمائل، والكواكب تصلي قبل أن يبينها الظلام وبعد أن يخفيها النور، والهاوية تصلي ومفاد صلاتها جنة ونعيم.

وليست الصلاة وظيفة من وظائف المتمذهبين، وليست بتلك الآيات القديمة المرتبة التي يستظهرها الناس ويكررونها متوهمين أنهم يحصلون بواسطتها على عطف الله وبركاته، بل هي حالة باطنية روحية في الإنسان، بل حالة وضعية خفية في الطبيعة نفسها، فما ندعوه قصداً ومحجة في البشرية، أو نحواً وغرضاً في الطبيعة، أو قدراً محتوماً في الحياة، ليس بأكثر من صلاة عامة شاملة عميقة علوية كائنة في الذرات كيانها في الشموس، ملازمة للهيولي ملازمتها للعقل العام.

ولا تبدأ الصلاة بما تبثه الشفاه، ولا تنتهي بما تتغنى به الحناجر، فلقد كانت الصلاة وهي باقية في كل عاطفة من عواطفنا الأولية في كل ساعة من ساعات أيامنا ولياليا.

كلنا يصلي، وكل ما في الأرض يصلي، لأن كل ما في الأرض من الله ولله.

والله يصلي على ذاته، ويسلم كيانه على كيانه.

openkandil.com

الأمم وذواتها

الأمة مجموع أفراد متباييني الأخلاق والمشارب والآراء تضمّهم رابطة معنويّة أقوى من الأخلاق وأعمق من المشارب وأعمّ من الآراء.

وقد تكون الوحدة الدينيّة بعض خيوط هذه الرابطة، غير أن الخلاف في العقيدة لا يحلّ الروابط الأمميّة إلاّ إذ كانت ضعيفة واهية كما هي في بعض البلاد الشرقيّة.

وقد تكون وحدة اللغة سبباً أساسيّاً لإيجاد هذه الرابطة، ولكن هناك شعوب كثيرة تتكلّم لغة واحدة مع أنّها في خلاف مستمر من حيث السياسة والإرادة والنظريات الاجتماعيّة.

وقد تكون الوحدة الدمويّة أساساً لهذه الرابطة، ولكن في التاريخ أمثلة عديدة نستدلّ منها على أن أفخاذ عنصر واحد انشقت بعضها على بعض وكان ذلك الانشقاق مجلبة للتطاحن والتباغض ثمّ الاضمحلال.

وقد تكون المصلحة المادية نولاً تحاك عليه تلك الرابطة، ولكن هناك شعوب عديدة لم تحك مصلحتهم المادية سوى المنافسة والمناقشة.

إذن ما هي تلك الرابطة الاجتماعية؟ وما هي التربة التي تنبت فيها أنصاب الأمم؟.

لي رأي في الرابطة الأمميّة قد يحسبه بعض المفكّرين غريباً لأن أصوله ونتائجه من الأمور المحسوسة.

أمّا رأيي فهو هذا:

لكلّ شعب ذات عامّة، تشابه بجوهرها وطبيعتها ذات الفرد. ومع أن هذه الذات العامة تستمد كيانها من أفراد الشعب كما تستمد الشجرة حياتها من الماء والتراب والنور والحرارة فهي مستقلة عن الشعب ولها حياة خاصّة وإرادة منفردة. وكما يصعب عليّ تحديد وتعيين الزمن الذي تتولّد فيه ذات الفرد الواحد هكذا يصعب عليّ تعيين وتحديد الزمن الذي تتولّد فيه الذات العامة. غير أنّني أشعر أن الذات المصريّة –مثلاً– قد تبلورت قبل ظهور الدولة الأولى على ضفاف النيل بزمن لا يقلّ عن خمسمائة سنة. ومن تلك الذات العامة قد استمدّت مصر مظاهرها الفنيّة والاجتماعيّة. وما أقوله عن مصر

يصح في أشور وفارس واليونان وروما العرب وغيرها من الأمم الحديثة، أعني تلك التي ظهرت بعد انقضاء الأجيال المتوسطة.

قل إن للذات العامة حياة خاصّة. نعم، ولما كل لكلٍّ حيّ عمر محدود كان لتلك الذات العامّة أجل محدود لا تتجاوزه. ومثلما يسير الكيان الفردي من الطفولة إلى الشبيبة، إلى الكهولة، إلى الشيخوخة، هكذا يتدرّج كيان الذات العامة من يقظة المساء المتسربلة بلباس التضجر، إلى يقظة الليل المغمورة بالنعاس، إلى سبات عميق.

إن الذات اليونانيّة قد استيقظت في القرن العاشر قبل المسيح، ومشت بعزم وجلال قي القرن الخامس قبل المسيح. ولما بلغت عهد الناصري كانت قد ملّت أحلام اليقظة فنامت على مضجع الأبديّة لتعانق أحلام الأبديّة.

أمّا الذات العربيّة فقد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخّض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبار وثارت كالعاصفة متغلّبة على كلّ من يقف في سبيلها. ولما بلغت العبّاسيّين تربّعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها أوّلها في الهند وآخرها في الأندلس. ولما بلغت عصاري نهارها وكانت الذات المغوليّة قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربيّة يقظتها فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطّعاً. وقد تعود

وتفيق ثانية لتبيّن ما بقى خفيّاً في نفسها كما عادت الذات الرومانيّة في زمن النهضة الإيطاليّة المعروفة بالرنسانس وأكملت في البندقية وفلورنسا وميلانو ما ابتدأت به قبل أن تباغتها الشعوب التوتونيّة في بدء الأجيال المظلمة.

وأغرب الذوات العامّة في التاريخ هي الذات الفرنسيّة، فهي قد عاشت ألفي سنة أمام وجه الشمس ولم تزل في شبيبة نضرة. وهي اليوم أدقّ فكراً وأحدّ نظراً وأوسع فنّاً وعلماً ممّا كانت في أيّ زمن من تاريخها.

فرودان وكارير وشيتان وهوغو وريتان وساسه وسيموني، وجميعهم من أبناء القرن التاسع عشر، كانوا أعظم رجال العالم فنّاً وأكثرهم علماً وأبعدهم خيالاً، الأمر الذي يدلّنا على أن لبعض الذوات العامة أعماراً أطول من الأخرى. فالذات المصريّة عاشت ثلاثة آلاف سنة. أمّا الذات اليونانيّة فلم تعش أكثر من ألف سنة. وقد تكون الأسباب في طول آجال الذوات العامة أو قصرها شبيهة بأسباب قصر أعمار الأفراد أو طولها.

وماذا يا ترى يحلّ بالذات العامة بعد أن تلعب دورها على مسرح الوجود؟.

هل تموت وتفنى بدورها غير تاركة وراءها سوى الذكرى لمن يجيء بعدها؟ هل تضمحل أمام الأيّام والليالي كأنّها لم تكن مظهراً لليالي والأيّام؟.

في عقيدتي أن الكيان المعنوي يتغيّر ولكنّه لا ولن يضمحلّ. فهو كالكيان المادي يتحوّل من شكل إلى شكل ومن صورة إلى صورة، أمّا دقائقه وذراته الوضعيّة فباقية ببقاء الزمن. فذات الأمّة العامّة تنام ولكن نوم الأزاهر بعد أن تلقي بذورها في تربة الأرض، أمّا عطرها فيتصاعد إلى عالم الخلود. وعندي أن العطر في الأمّة أو في الزهرة هو الحقيقة المجرّدة، هو الجوهر المطلق. فعطر ثيب وبابل ونينوي وأثينا وبغداد موجود الآن في الغلاف الأثيري المحيط بالأرض، بل هو موجود في أعماق أرواحنا. ونحن، أفراداً وجماعات، ورثة كلّ الذوات العامّة التي وجدت على سطح الأرض.

غير أن ذلك الإرث العلوي لا يتخذ له صوراً محسوسة في الفرد أو الجماعات حتى تتبلور الأمّة التي ينتسب الأفراد والجماعات إليها وتصير ذاتاً لها حياة خاصّة وإرادة منفردة.

* * *

الشرق

في سنة ١٩٢٣ استفتت مجلة ﴿الهلال﴾ طائفة من كبار الأدباء في موضوع نهضة الشرق العربي وموقفة إزاء المدنية الغربية فوافاها جبران بالرد التالي:

السؤال: ﴿هل تعتقدون أن نهضة الأقطار العربية قائمة على أساس وطيد يضمن لها البقاء، أم هي فورانٌ وقتيّ لا يلبث أن يخمد؟﴾.

في عقيدتي أن ما نحسبه نهضة في الأقطار العربية ليس بأكثر من صدى ضئيل للمدنية الغربية الحديثة، ذلك لأن هذه النهضة المباركة لم تختلق شيئاً من عندها، ولم يبن منها ما كان موسوماً بطابعها الخاص أو ملوّناً بصبغتها الذاتية. والاسفنجة التي تمتصّ الماء من خارجها وتنتفخ قليلاً لا تتحوَّل إلى ينبوع ماء حي. أما ذاك الذي يرى في الاسفنجة نبعة فهو أحوج إلى الرمدي وعقاقيره منه إلى صاحب هذا المقال ونظرياته في الاجتماع.

إن الشرق بكليته، ذلك الشرق الممتد من المحيط إلى المحيط، قد أصبح مستعمرة كبرى للغرب والغربيين. أما الشرقيون، الشرقيون الذين يفاخرون بماضيهم ويتباهون بآثارهم ويتبجحون بأعمال جدودهم،

فقد صاروا عبيداً بأفكارهم وميولهم ومنازعهم للفكرة الغربية والميول الغربية والمنازع الغربية.

ليس بحثنا في هل المدنية الغربية صالحة في ذاتها أم غير صالحة، فالمدنية الغربية قد وقفت سنة ١٩١٤ أمام منصة القضاء السرمدي ولم تزل واقفة هناك. ولو انتدبني القضاء السرمدي لإصدار حكمه عليها لفعلت وكنت بما أقوله على وفاق تام مع أكثر مفكري الغرب.

نحن نبحث الساعة في هل الأقطار العربية ناهضة أم غير ناهضة، ونبحث في ما تتناوله لفظة ﴿نهوض﴾ من المعاني وما تقرره من النتائج.

إذا كان النهوض بالتلمذة، وما يظهره التلميذ بعض الأحايين من المقدرة على الاقتباس السطحي، فالأقطار العربية إذاً ناهضة.

إذ كان النهوض بترقيع البالي، فالأقطار العربية أحرى الأقطار بالإعجاب.

إذ كان النهوض بأن يرتدي شعب ثوباً فصّل لشعب آخر، فالأقطار العربية قد بلغت المحجَّة.

إذا كان النهوض بتبييض القاتم، وتكليس المتداعي، وتـــرميم المهدوم، فالأقطار العربية قد وصلت إلى أوج المجد والسؤدد.

إذا كان النهوض بأن ننظر بمكبرات الجهالة، فنرى النملة فيلاً والبعوضة جملاً فالأقطار العربية قد نهضت حتى ناطحت المجرّة.

إذا كان النهوض بالانصراف عن النبيل لصعوبته، والاستسلام إلى التافه لسهولته، فالأقطار العربية قد أصبحت في مأمن من تقلبـــات الزمن.

ولكن إذا كان هذا النهوض بالاختراع والاكتشاف، فالأقطـــار العربية ما برحت هاجعة، هذا إذا نظرنا إلى الاختـــراع والاكتشـــاف بعينيّ المشغوف بالمدنية الغربية وما فيها من المستحدثات الآلية.

وإذا كان النهوض بالروح والجوهر، فالشرق العربي ما برح بروحه وجوهره حيث كان منذ ألف سنة.

وإذا كان النهوض باليقظة المعنوية، وما يلازمها من معرفـــة باطنية وشعور صامت، فالشرق لم ينهض بعد لأنه لـــم يهـــبط قـــط. فالكنوز التي اكتشفها لم يفقدها، ولكنه تعامي عنها. وشجرة الدر التي غرسها في التربة القدسية وسقاها دمه ودموعه لم تزل غضة الأفنـــان شهية الأثمار، غير أنه تحوّل عنها وراح يستظلّ بشجرة أخرى.

لو أتيح لنا الوقوف هينهة على قمة من قمم التجريد مستعرضين مآتي العصور الغابرة لرأينا أن نهضات الأمم ووثباتها لم تكن بما أوجدته لمنفعة خاصة بها. أو لمجد محدود بحدودها وتخومها، بل كان بما تركته إرثاً للأمم التي جاءت بعدها، وعلمنا أن زبدة العهد الذي كان فجره في بابل ومساؤه في نيويورك هي بالحقائق العامة الشاملة التي اكتشفها الإنسان وأثبتها، وهي بالجمال المطلق الذي رآه في الكيان فوضعه بقوالب خالدة وأوقفه أبراجاً ذهبية أمام وجه الشمس. فإن ذُكرت النهضات الروحية قلنا كان موسى نهضة إسرائيل وموسى لم يزل ناهضاً. وكان بوذا نهضة الهند وبوذا لم يزل ناهضاً. وكان كونفوشيوس نهضة الصين وكونفوشيوس لم يزل ناهضاً. وكان زردشت نهضة الفرس وزردشت لم يزل ناهضاً. وكان يسوع الناصري نهضة من ليس لهم أمة ولا وطن ويسوع الناصري لم يزل ناهضاً. وكان محمد نهضة العرب ومحمد لم يزل ناهضاً. وإن كان بنا ميل للآداب والفنون –وما الآداب والفنون من الدين إلى بمقام الشرح من المتن– رأينا رموز تلك النهضات العلوية ظاهرة بجلاء في مزامير داود وسفر أيوب والحكايات الهندية والأمثال الصينية، وفي آيات عليّ ونظريات الغزالي ونفحات الفارض وغصّات المعرّي، وفي رؤيا دانتي وتماثيل مايكل أنجلو، وروايات شكسبير وأنغام بيتهوفن. وإن كان بنا نزوع إلى العلوم الإجرائية وجدنا أنه رغم ما يهدمه كل

عصر مما بناه العصر الذي تقدمَّه فالقليل الباقي كان وسيكون لنفع المجتمع الإنساني. ولكن إذا تتبعنا وتفحصنا حقيقة الذين اشتغلوا بالعلوم الطبيعية والفلسفية من جلينوس إلى لستر، ومن إقليدس إلى أينشتين، ومن يعقوب الكندي إلى باستر، وجدنا أن كل فرد منهم كان نتيجة مقررة لعزم كامن في عقلية شعبه، ولم يكن قطّ ظلاً مرتعشاً لعقلية في الشعب الآخر.

* * *

ظهر مما تقدم أن النهضات بالمصادر لا بالفروع، وبالجوهر الثابت لا بالأعراض المتقلبة، وبما ينشره الوحي من غوامض الحياة لا بما يحوكه الفكر من الرغائب الوقتية، وبالروح المبدع لا بالمهارة المقلّدة، فالروح خالد وما يبنيه الروح خالد، أما المهارة فقشور مصقولة تزول، وما تعكسه على أديمها المصقول فأخيلة تضمحلّ.

وإذا ثبت ما تقدم تقرر لدينا أن الأقطار العربية ليست بناهضة إذا كانت تحسب النهوض في تقليد المدنية الغربية الحديثة –تلك المدنية التي يرتاب بها أبناؤها العقلاء ويكرهون أكثر مظاهرها.

ولكن إذا عادت الأقطار العربية وتنبهت إلى ما في ذاتها الخاصة من القوى، ووقفت متهيبة أمام كنوزها المعنوية القديمة تكون

ناهضة حقيقية وتكون نهضتها قائمة على أساس وطيد ولست بفوران وقتي لا يلبث أن يخمد.

* * *

السؤال: ﴿هل تعقدون بإمكان اتحاد هذه الأقطار وتآلفها، ومتى وبأي العوامل، وما شأن اللغة في ذلك؟﴾.

هذا سؤال يتناول النهوض من حيث هو سياسة لا من حيث هو يقظة معنوية. لا بأس فهذا جوابي:

في عقيدتي أنه ليس بالإمكان تضامن الأقطار العربية في زمننا هذا، لأن الفكرة الغربية القائلة بميزة القوة على الحق، والتي تضع المطامع الاستعمارية والاقتصادية فوق كل شيء، لا ولن تسمح بذلك التضامن ما دام لها الجيوش المدرّبة والبوارج الضخمة لهدم كل ما يقف في سبيل منازعها استعماريةً كانت أم اقتصادية. وكلنا يعلم أن كلمة ذلك الروماني ﴿فرِّق تسد﴾ لم تزل قاعدة مرعيةً في أوروبا. ومن نكد الدنيا، من نكد الغرب والشرق معاً، أن يكون المدفع أقوى من الفكر، والحيلة السياسية أفعل من الحقيقة.

وأنّى للأقطار العربية التضامن وقلب كل قطر منهـا يخفـق ولكن بصدر عاصمة من عواصم الغرب؟ وكيـف تسـتطيع الألفـة والتعاون وكل منها يستمدُّ ميوله السياسية والعمرانية والاقتصادية من زاوية بعيدة من زوايا الغرب؟.

إذا كان القطر الواحد من الأقطار العربية يريد أن يتفق سياسياً مع القطر الآخر فعليه أن يأخذ منه ويعطيه. وإذا كان يريد أن يستعين به اقتصادياً فعليه أن يؤثر مبادلته على مبادلة البلاد الأخرى. فهل فهم الشرق العربي هذه الأوليات البسيطة –البسيطة إلى حد الابتذال؟.

أقول أنهم لم يدركوها بعد.

أقول أنهم لن يدركوها حتى يكتشفوا في نفوسهم ما هو أعمق منها وأبعد.

ألا فليخبرني الفهماء هل يفضل السوري الأخذ والعطاء مـع المصري على الأخذ والعطاء مع الغربـي، وهـل يـؤثر المصـري الاقتراب من السوري على الاقتراب من الغربي، وهل العربـي فـي الحجاز أو اليمن أو العراق أشد رغبةً في مبادلة المصري أو السوري منه في مبادلة الغربي؟.

وليخبرني الأذكياء هل يمكن التضامن السياسي أو غير السياسي بدون التضامن الاقتصادي بل الاستقلال الاقتصادي؟.

وبعد ذلك فليقل لي العقلاءُ والوجهاءُ وقادة الرأي العام هل يرغبون حقيقةً في نهضة الأقطار العربية وفي تضامنها وفي استقلالها وجلُّ ما يفعلونه في هذا السبيل إبداء آرائهم، وأكثرها بليدة وعقيمة، أما أعمالهم الخاصة ومآتيهم الذاتية وكل ما تتناوله حياتهم اليومية فتختلف مزاعمهم وتنكر عليهم دعواهم. فهم إن أكلوا فبصحون غربية، وإن شربوا فبكؤوس غربية، وإن لبسوا فالأثواب الغربية، وإن ناموا فعلى أسرة غربية، وإن ماتوا كفنوا بقماش منسوج في معامل غربية.

أليسَ من المضحك أن يجيئني ﴿الوطنيّ الحرّ والسياسي المحنَّك﴾ ليحدثني في شؤون الأقطار العربية ولكن بلغة غربية؟

أليس من المبكي أن يدعوني إلى منزله لأحصل على شرف المثول أمام زوجته المهذَّبة – المهذبة في المعاهد الغربية؟

أليس مما يدمي القلب أن أجلس إلى مائدته وابنته اللطيفة تحدثني عن أغاني شوبان، وابنه الأديب يردد على مسامعي قصائد دي موسة، كأن الروح السائرة مع الريح لم تسكب النهوند والبيات

والرست في القلب الشرقي؟ وكأنها لم تتكلم قط بلسان المجنون والشريف والرضي وابن زريق.

وبعد كل ذلك أليس مما يستوجب الغضب أن يقودني هذا ﴿الوطنيّ الحر﴾ إلى ردهة الاستقبال ليتابع أحاديثه السياسية ويعرض عليّ آراؤه في تضامن الأقطار العربية نيابياً واستقلالياً إدارياً واقتصادياً؟

لو قال لي هذا الوطني السياسي، الذي يمثل دورين بليدين في وقت واحد، لو قالي لي ولو بشيء من النزاهة ﴿الغرب سابق ونحن لاحقون. وعلينا أن نسير وراء السابق ونتدرج مع الدارج، إذاً لقلت له: حسنا تفعلون. إلحقوا السابق ولكن إلحقوه صامتين، وسيروا وراء السائر ولكن لا تدّعوا بأنكم غير سائرين، وتدرجوا مع الدارج ولكن كونوا مخلصين للدارج، ولا تخفوا حاجتكم إليه وراء غربال من الخزعبلات السياسية. وماذا عسى ينفعكم التضامن في الأمور العرضية وأنتم غير متضامنين في الأمور الجوهرية، وماذا تجدي الألفة في المزاعم وأنتم متباينون في الأعمال؟ ألا تعلمون أن الغربيين يضحكون منكم عندما تحلمون الليل بالأُلفة المعنوية والجامعة الجنسية والرابطة اللغوية حتى إذا ما جاء الصباح سيّرتم أبناءكم وبناتكم إلى

معاهدهم ليدرسوا على أساتذتهم ما في كتبهم؟ ألا تعلمون أن الغربيين يسخرون بكم عندما تظهرون رغبتكم في التضامن السياسي والاقتصادي مع أنكم تطلبون إليهم أن يبدلوا المواد الخام التي تثمرها أرضكم بالإبرة التي تخيطون بها أثواب أطفالكم والمسمار الذي تدقونه في نعوش أمواتكم؟).

هذا ما أقوله لمن يسمع، ويسمع بشيء من النزاهة. أما الصمّ، أولئك الذين لا يسمعون حتى ولا همس نفوسهم، فلهم بالحصة الكبرى من عطفي وشفقتي. أما نصيبهم من صوتي فمثل نصيبي من آذانهم.

يتضح مما تقدم، ولكن بصورة سلبية، ما أحسبه أفضل العوامل التي تؤول إلى تضامن الأقطار العربية وتآلفها بل واستقلالها ... أما الصورة الإيجابية فهي تنحصر في أمرين أساسيين، أولهما تثقيف الناشئة في مدارس وطنية بحتة وتلقينها العلوم والفنون باللغة العربية – فينتج عن ذلك الألفة المعنوية والاستقلال النفسي. وثانيهما استثمار الأرض واستخراج خيراتها وتحويل تلك الخيرات بواسطة الصناعة الشرقية إلى ما يحتاجه القوم من مأكل وملبس شرقي ومأوي شرقي– فينتج عن ذلك التضامن الاقتصادي ثم الاستقلال السياسي.

* * *

السؤال: ﴿هل ينبغي لأهل الأقطار العربية اقتباس عناصر المدنية الغربية، وبأي قدر وعند أي حدّ يجب أن يقف هذا الاقتباس؟﴾.

في مذهبي أن السرّ في هذه المسألة ليس بما ينبغي أن يقتبسه الشرق أو لا يقتبسه من عناصر المدنية الغربية، بل السر كل السر هو في ما يستطيع الشرق أن يفعله بتلك العناصر بعد أن يتناولها.

قلت منذ ثلاثة أعوام إن الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه ويبتلعونه محوّلين الصالح منه إلى كيانهم الغربي، أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولكنه لا يتحوّل إلى كيانهم الشرقي بل يحولهم إلي شبه غربيين، وهي حالة أخشاها وأتبرم منها لأنها تبين لي الشرق تارةً كعجوز فقد أضراسه وطوراً كطفل بدون أضراس.

لقد طرحت الكثير من أفكاري بين ملتويات الأعوام الثلاثة الأخيرة، أما هذه الفكرة فلم تزل تلازمني، فما خشيته وتبرمت منه إذ ذاك أخشاه وأبرم منه الآن. بل هناك أمرٌ ادعى إلى الوجل والقنوط. وهو أن أوروبا في أيامنا هذه تقلد أميركا وتتبع خطواتها بينما الشرق العربي يقلد أوروبا ويحنو نحوها. أعني أن الشرق العربي قد صار مقلداً للمقلدين وظلاً للأظلال.

أعني أن الاسفنجة قد أصبحت لا تمتصُّ من الماء إلاَّ ما يتسرب إليها من الاسفنجة الأخرى، وهذا منتهى الضعف والاتكال على الغير. بل هذا منتهى الغباوة والعماية لأن الشرقيين في غنى عن الاستعطاء فضلاً عن استعطاء المستعطي.

لو كان بإمكان الشرق أن يقتبس ما يجهله بدون أن ينقلب المقتبَس سماً قاتلاً لما كان يعرفه لكنت أول الداعين إلى الاقتباس. ولو استطاع الشرقي أن يستعير ما يحتاجه بدون أن يجعل المستعار قبراً لما كان حاصلاً عليه لكنت من مؤيدي الأخذ والنقل والاحتذاء، ولكنني نظرت فرأيت الفطرة المبدعة في نفس الشرقي قيثارة دقيقة الأوتار ذات قرارات تختلف بطبيعتها عن كل قرار في كل وتر من كل قيثارة غربية، والشرقي لا يستطيع الجمع بين نبرات وسكنات نغمين متباينين بدون أن يفسد أحدهما أو كليهما.

كثيراً ما نسمع السطحيين يقولون «هوذا اليابان قد اقتبست المدنية الغربية فتقدمت وأفلحت وعظم شأنها حتى صارت تضاهي أعظم الأمم وأقواها».

ولكن اليابان في شرع حكمائها ومفكريها وأدبائها قد أضاعت مدنيتها الخاصة بها عندما تمشت وراء المدنية الغربية، ويقولون أن

الشعب الياباني قد فقد عقليته وسليقته وأخلاقه وفنونه وصنائعه وراحة قلبه عندما انصرف إلى تقليد أوروبا وأمريكا. ويقولون إن انتصارات اليابان العسكرية كانت بالحقيقة انكسارات معنوية ساحقة. ويقولون إن المدرعات والمدافع والآلات التي تعلموا كيفية صنعها من ألمانيا والولايات المتحدة قد هدمت الجميل والنبيل والحيوي والنافع في المدنية اليابانية ولم تثمر غير البشاعة والسماجة والثعلبة والسخافة.

* * *

في الشرق، في منزلنا القديم، كنوز وذخائر وطرائف لا عداد لها ولكنها مشوشة متراكمة محجوبة بغشاءٍ من الغبار. ومن المعلوم أن الغربيين قد أتقنوا فن الترتيب حتى بلغوا أقصى درجاته، فهم إن رتبوا عيوبهم ظهرت كأنها حسنات جليلة، وإن رتبوا حسناتهم بدت وكأنها معجزات رائعة، فإذا كان لا بدّ من الاقتباس فلنقتبس هذا الفن عن الغربيين بشرط ألا نقتبس سواه[*].

[*] جبران حيّاً وميتاً ص ٢٤٧-٢٥٥.

openkanal.com

١- مؤلفات جبران المنشورة[*]

انتظم ما كتبه جبران في ستة عشر مؤلفاً صغيراً نعرِّفها بشكل موجز سريع على الشكل التالي:

١- **الموسيقى (١٩٠٥م)** هو أوّل كتاب له كان، في الأصل، مقالاً طويلاً تحدَّث فيه، دون تعمّق، عن الموسيقى وتأثيرها، وازدهارها في الأمم، عارضاً أشهر أبوابها كالنهاوند، والأصفهان، والصبا، والرصد، واصفاً الحان العود وصف خبير مجرّب. كل ذلك بأسلوب شعريّ أقرب إلى الاتجاه الميتافيزيقيّ.

٢- **عرائس المروج (١٩٠٦م)** تضمَّن ثلاث أقاصيص:

أ- **رمال الأجيال والنار الخالدة**، وفيها يظهر اعتقاد جبران بالتقمّص، إذ يروي حكاية عاشقين عاشا في السنة ١١٦ق.م. ثم اختطف الموتُ من الشاب معشوقته، ليعود العاشقان إلى الأرض في ربيع سنة ١٩٨٠م.

---

[*] من كتاب الدكتور إميل بديع يعقوب: "جبران واللغة العربية". ص١٨-٢٤.

obeikandl.com

ب- **مرتا البانية**، يصور فيها طهارة قلب امرأة أوقعها أحد أوغاد المدينة بشركه، فأعالت طفلها بشذوذها. اجتمع بها الكاتب وهي تحتضر، فدار بينهما حديث شجيّ حول نقاء النفس وأدران الجسد.

ج- **يوحنا المجنون**، وفيه يصوَّر جبران فظاظة الرهبان بمقابل سذاجة القرويّ وعفويّته، شانّاً حملة شعواء على رجال الدين.

٣- **الأرواح المتمرِّدة (١٩٠٨م)**، فيه أربع أقاصيص. في الأولي "وردة الهاني" يتظلّم جبران من التقاليد، والشرائع الزوجيَّة الاجتماعيَّة، ويندِّد بالزواج التجاريّ الذي أُلِفه الشرقّيون، قاصّاً بعضاً من سيرة حسناء جميلة، زُوِّجت كرهاً برجل هَرِم ثرّي. وفي الثانية "صراخ القبور" يثور على إقطاعيّة رجال الدين. وعلى الشرائع التي سنّها القويّ ليفتك بالضعيف، مرتكزاً إلى حكم بالإعدام أصدره أمير طاغية على ثلاثة مظلومين: الأوّل جندل قائداً قوّاد الأمير ذوداً عن عِرضه، والثانية امرأة جُرّت عارية إلى الحقل ورُجمت، ثم تُركت فريسة للوحوش، لأنها خانت زوجها المفروض عليها، و"المجرم" الثالث شُنِق بشجرة لأنه سرق زنبيل دقيق من الدير

ليُطعم أولاده الجياع. وفي القصّة الثالثة "مضجع العروس" يروي جبران قصَّة فتاة شكَّت بإخلاص حبيبها، فقرّرت أن تتزوّج رجلاً لا تحبّه. وفي ليل زفافها، رأت حبيبها، فقتلته بخنجر ثمَّ انتحرت بعد أن ألقت عظة في قضايا الحب، والنقمة، والقوّة، والظلم، والغني، وغيره. والقصة الرابعة "خليل الكافر" تكاد أن تكون نسخة منقَّحة عن "يوحنا المجنون".

٤- **الأجنحة المتكسرة (١٩١٢م)**، وهي رواية صوّر فيها جبران الحب الذي كان بينه وبين سلمى كرامة، ولكن أبا الفتاة أذعن لمشيئة أحد المطارنة فزوَّج ابنته بابن أخي المطران، كل ذلك بأسلوب شعريّ وجدانِيّ مُشبَع بروح التقديس للحب.

٥- **دمعة وابتسامة (١٩١٤م)**، فيه ستّة وخمسون مقالاً كتبها بأسلوب حاكي في مزامير داود، ونشيد سليمان، وسفر أيوب، ومراثي أرميا، ونبوءات أشعياء، وعظات الناصريّ. وضمَّنها ثورة على جهل المقاييس البشريَّة وظلمها، ومباحث في المحبَّة، والأمومة، والطفولة، والموت، وشخصيَّة المسيح، وغيرها.

٦- **المجنون (١٩١٨م)**، هو أول كتاب لجبران بالإنكليزية، ينطوي على خمسة وثلاثين فصلاً، كان قد نشر قسماً منها في بعض المجلات العربيّة والإنكليزية. وفيه جدّد حملته على التقاليد الاجتماعيَّة والظلم والجهل، فسخر من غباوة الفلاسفة في "اللعين"، وعرَّض بالرياء الاجتماعي في "بين هجعة ويقظة" و"الأم وابنتها"، وهجا الواقع، ساخراً من الناس في "الكلب الحكيم"و"الناسكان"، و"اطلبوا تجدوا" وغيرها. كذلك عرض في بعضٍ منها نظريّته في التقمّص والخلاص. والمجنون عند جبران، في كتابه "المجنون"، وفي سواه[٢٩] رمز السيطرة على الذات والتحرّر من التقاليد الاجتماعيَّة الفاسدة، إنه جبران الثائر على الظلم والجهل، الجريء على انتزاع الأقنعة التي يلبسها الإنسان العصريّ فيطمس بها شخصيّته.

٧- **المواكب (١٩١٩م)**، قصيدة طويلة ساق فيها جبران خواطر فلسفيَّة في أهم شؤون الحياة البشريَّة، كالخير، والشر، والدين، والحق، والعدل، وغيرها. وفيها تيَّاران يبدوان كما لو كانا

---

[٢٩] يَرِد ذكر الجنون في كتبه العربيَّة في "يوحنا المجنون"، (ص٦٩-٨١ من المجموعة الكاملة)، و"حفار القبور" (ص٣٦٧-٣٧١م المجموعة)، و"يسوع ابن الإنسان" (المجموعة المعرَّبة. ص٢٠٣-٣٦٢)، وغيرها.

حواراً بين شخصين. الأوّل يمثّل الحياة بظاهرها القبيح وباطنها الجميل، فيتّبرم بما في الحياة البشريَّة من رياء وضعف وذلّ وقلق وصراع دائم بين الخير والشرّ. والثاني يمجِّد الحياة في "الغاب"، أي حياة الفطرة والسليقة حيث لا خير ولا شرّ، بل تسامٍ فوقهما. والتيّاران صدى لازدواجيَّة الذات في الإنسان: ذات التمدّن، وذات الفطرة المتمثِّلة بالرعاة الفتيان، أو هما صدى لِما يراه جبران من رياء وشر، وما يريده من صفاء وهدوء وأمن. والجدير بالملاحظة أن هذه القصيدة أصدرها جبران على نفقته الخاصة في حلَّة أنيقة ببعض رسومه الجميلة. وهي العمل الجبراني الوحيد الذي يتقيّد فيه بالوزن والقافية لخلق عمل فنيّ ذي شأن.

٨- **السابق (١٩٢٠م)**، هو الكتيِّب الثاني باللغة الإنكليزية فيه خمسة وعشرون مقالاً صغيراً، بعضها قصص صغيرة رمزيَّة "الملك الناسك"، "بنت الأسد"، "الحرب والأمم الصغيرة" ... وبعضها الآخر خواطر صغيرة، كما في "المحبّة"، و"الطمع" و"التوبة".

٩- **العواصف (١٩٢٠م)**، فيه سبع قصص قصيرة، وبعض المقالات المتنوِّعة. أمّا القصص فبعضها من صنف الحكايات

الرمزية: "العاصفة"، "الشيطان"، "الشاعر البعلبكيّ" و"البنفسجة الطموح"، وواحدة تروي حادثة غريبة غامضة، هي "سفينة الضباب"، واثنتان في النقد الاجتماعيّ: "السم في الدسم"، و"ما وراء الرداء". أمّا المقالات فتتراوح بين الثورة الصاخبة العنيفة على الضعف، كما في "حفّار القبور" – وهي الأشد عنفاً – و"العبوديَّة"، و"يا بني أمِّي"، و"نحن وأنتم"، و"أبناء الآلهة وأحفاد القرود"، و"الأضراس المسوَّسة"، و"العاصفة"، وبين الكتابة الوجدانيَّة بكل ما فيها من حب وكآبة، ووحشية، وغربة، وألم، وشوق، وحنين، وخاصة في مقاله المؤثِّر "مات أهلي" الذي كتبه عندما قضت الحرب العالميَّة الأولى على الألوف من أبناء وطنه جوعاً ومرضاً. وفيه يتمنّى لو كان سنبلة من القمح نابتة في تربة لبنان يقتات بها طفل جائع، أو ثمرة يانعة في بساتين لبنان تجنيها امرأة جائعة، أو طائراً في فضاء لبنان يصطاده صياد جائع.

١٠- **البدائع والطرائف (١٩٢١م)** هذا الكتاب ليس سوى مجموعة اختارها صاحب "مكتبة العرب" في مصر من كتابات جبران الذي لم يكن له رأي في اختيارها وتسميتها. وجلّها مأخوذ من "دمعة وابتسامة"، و"العواصف" وغيرهما من مؤلّفات جبران، مع بعض المقالات التي لم يكن جبران قد نشرها في كتاب،

ومنها "وعظتني نفسي"، وفيه عودة إلى المساواة بين البشر، ولكم لبنانكم ولي لبناني" وفيه يفصِّل نظرته المختلفة عن غيره نحو وطنه لبنان، و"مستقبل اللغة العربيَّة" وهو مقابلة أجرتها معه مجلة "الهلال" المصريَّة في بعض شؤون اللغة العربية و"إرم ذات العماد" وفيه تأمل في مصير الإنسان، والحياة، والموت، والروح، والمادة، ووحدة الوجود، والأمل ...

١١- **النبيّ (١٩٢٣م)** هو أكثر كتب جبران رواجاً، وأهمّها على الإطلاق، إذ تُرجِم إلى أكثر من أربعين لغة، وبيع من نُسخه حتى السنة ١٩٥٩م، إي بعد صدوره بست وثلاثين سنة، مليون نسخة[٣٠]، ومنهم من يقول مليونين[٣١]. وكان جبران قد بدأ التفكير به منذ السنة ١٩١٢م، أي قبل صدوره بإحدى عشرة سنة، كما جاء في مذكرات ماري هاسكل[٣٢]. وفي الكتاب ستَّة وعشرون فصلاً عدا المقدّمة والخاتمة، تتناول موضوعات كلاسيكيَّة شاملة تهم الناس في كل زمان ومكان: الحب، الزواج، الأولاد، العطاء، المأكل والملبس، العمل، البيوت، الجريمة والعقاب، الشرائع، الحرية، العقل والهوى،

---

[٣٠] خليل حاوي: جبران خليل جبران. ص٣١٧.

[٣١] هم روز غريب: جبران في آثاره الكتابية ص١٦.

[٣٢] عن المرجع نفسه، ص٢٣٤.

اللذة والألم، التعليم، الصداقة، الجمال، الدين والموت. وفي هذه الموضوعات يمزج جبران بين المبادئ الصوفية: والحِكم العمليَّة، والقِيَم الروحيَّة. وفي كل صفحة منه نجد فكرة جميلة. أمّا الأسلوب فشاعريّ في إطار ظريف يتألّف من حكاية عن نبيّ اسمه المصطفى –وهو جبران نفسه– ينتظر في مدينة خياليَّة اسمها "أورفليس"– وترمز إلى المجتمع البشري الذي يعيش فيه جبران –وسفينته (هي الموت) تنقله إلى أرض أجداده (هي الآخِرة). وفي يوم وداعه لأهل المدينة، يُلقي عليهم خطباً يُضمِّنها خلاصة تعاليمه.

١٢- **رمل وزبد (١٩٢٦م)** لا يتضمَّن هذا الكتيِّب فكراً جبرانيّاً جديداً، فهو عبارة عن مجموعة حِكَم كان بعضها، كما تذهب السيدة بربارة يونغ Barbara Young إحدى صديقاته، ملاحظات أبداها لها، ودوَّن بعضها على قصاصات من الورق[٣٣].

١٣- **يسوع ابن الإنسان (١٩١٨م)** يحاول جبران، في هذا الكتاب، أن يتحدَّث عن "أقوال المسيح، وأعماله كما رواها ودوَّنها أولئك الذين عرفُوه"، لذلك يُضمِّنه انطباعات وآراء مفترَضة

[٣٣] عن خليل حاوي: جبران خليل جبران، ص٢٥٧

يُدلي بها تلامذة يسوع، وأمّة، وبعض أفراد أسرته، وأعداؤه، وغيرهم. ويتضمَّن الكتاب عقيدة التقمّص التي آمن بها جبران الذي يظهر في خاتمة كتابه تحت عنوان "رجل من لبنان بعد تسعة عشر قرناً"[٣٤]. وقد حاول جبران في هذا الكتاب أيضاً بحث موضوعات في المنطق والفلسفة، والحضارة اليونانيَّة، فجاء بحثه سطحيَّاً غير موفَّق.

١٤- **آلهة الأرض (١٩٣١م)** يتضمَّن هذا الكتيب حواراً رمزيّاً بين ثلاثة آلهة يهتمون جميعاً بمصير ألوهيّتهم، ومصير الإنسان، وليسوا، في الحقيقة، سوى الإنسان الخارج عن نطاق نفسه إلى حالة من الألوهة، بنزعات إنسانيَّة ثلاث. فالإله الأوّل متبرّم بتكرار الحياة الرتيب، فيرغب في الانمحاق. ويستمتع الإله الثاني بقدرته على الإنسان، واللعب بمصيره، ولكنه، قبل نهاية الحوار، يتخلّى عن القوَّة ليؤمن بالمحبَّة. وأمَّا الإله الثالث، فيعتقد أنّ المحبَّة هي الحقيقة الأساسيَّة الوحيدة في الحياة. وهكذا يدور الكتاب حول المحبَّة، ولكن بأسلوب تسوده الكآبة، والتفكير بالموت باعتباره الحقيقة الوحيدة الخالدة.

---

[٣٤] جبران خليل جبران: المجموعة الكاملة، ص٣٣٥-٣٦٢.

١٥- **التائه (١٩٣٢م)** هو آخر كتاب لجبران أتمّ كتابته قبيل موته، يتضمَّن خمسين قصّة وأسطورة استوحاها من التراث الشرقيّ، وهي تشبه قصص "المجنون" من حيث السخرية من معتقدات الناس، والتبرّم بسخافات العالم.

١٦- **حديقة النبي (١٩٣٣م)** هذا الكتاب أصدرته السيدة بربارة يونغ إحدى صديقات جبران، بعد موته بسنتين، وهو يتضمَّن فصولاً كان جبران قد هيَّأها له، وأخرى له علاقة لها بموضوع كتابه، كان جبران قد نشرها في العربيَّة، ثم نقلها إلى الإنكليزية[٣٥]. وثمَّة تشابه كبير بين "النبيّ" وحديقته، فالبطل واحد، وهو جبران نفسه، والمواعظ تكاد تتشابه، والرموز هي هي، مع بعض الفروق أهمها أن موضوع "النبيّ" علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، أما موضوع "حديقة النبيّ"، فعلاقته بالطبيعة.

[٣٥] انظر خليل حاوي: جبران خليل جبران. ص ٢٦٣-٢٦٥.

obeikandi.com

٢- فهرس الكتب الموضوعة عن جبران باللغة العربية

- بدوي سليم: مقدمة في فكر جبران السياسي، منشورات ليبانيا، ١٩٨٣.

- براكس، غازي، جبران خليل جبران، دراسة تحليلية تركيبية، دار النسر المحلّق بيروت، ١٩٧٣.

- البستاني، فؤاد افرام – مع جبران منشورات الدائرة، بيروت ١٩٨٣.

- بشروئي، سهيل بديع – جبران خليل جبران، مختارات ودراسات، دار المشرق، ١٩٧٠.

- جبر، جميل – جبران. سيرته. أدبه. فلسفته. ورسمه. دار الريحاني، بيروت، ١٩٥٨.

- الجرّ، شكر الله – نبيّ أورفليس، دار المكشوف، بيروت.

- حاوي، خليل – جبران خليل جبران: إطاره الحضاري وشخصيته وآثاره، تعريب سعيد فارس باز، دار العلم للملايين بيروت، ١٩٨٢.

obeikandl.com

- حنين، رياض – الوجه الآخر لجبران، دار النهار، ١٩٨٢.
- الحويّك، يوسف – ذكريات مع جبران: بـــاريس ١٩٠٩-١٩١٠، حررتها إدفيك شيبوب، دار الأحد بيروت، ١٩٥٧.
- خالد، أمين – محاولات في درس جبران، المطبعـــة الكاثوليكيـــة بيروت، ١٩٣٣.
- خالد، غسان – جبران الفيلسوف، مؤسسة نوفل بيروت، ١٩٧٤.
- خالد، غسان – جبران في شخصيته وأدبه، مؤسسة نوفل، بيروت ١٩٨٣.
- خليل، أحمد خليل – المحتوى السياسي لفكر جبران، دار الرّايـــة، بيروت، ١٩٧٠.
- خليل، أحمد خليل – المعرفة الاجتماعية في أدب جبران، دار ابن خلدون، ١٩٨١.
- خوري، أنطوان – جبران خليل جبران النابغة اللبنـــاني، مركـــز الإعلام والتوثيق، ١٩٨١.
- داية، جان – عقيدة جبران، دار سوراقيا للنشر، ١٩٨٨.

obeikandl.com

- الريحاني، أمين – ذكرى جبران، دار صادر، ١٩٣٢.
- زكّا، طنسي – بين نعيمة وجبران، مكتبة المعارف بيروت، ١٩٧١.
- سكيك، عدنان يوسف – النزعة الإنسانية عند جبران، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.
- صايغ، توفيق – أضواء جديدة على جبران، الدار الشرقية للطباعة والنشر بيروت، ١٩٦٦.
- صعب، وليم – مواكب الإيمان، مطبعة النجوى بيروت، ١٩٦٤.
- طويل، ناهدة – شخصية جبران خليل جبران، دراسة نفسانية، مطابع التجارة والصناعة بيروت، ١٩٧٣.
- عبد الفتّاح، محمد – كوكب الشعوب والأمم، القاهرة.
- عطوي، فوزي – جبران خليل جبران عبقري من لبنان، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ١٩٧١.
- العظمة، نذير – جبران خليل جبران في ضوء المؤثرات الأجنبية، دراسة مقارنة، دار طلاس دمشق، ١٩٨٧.

obeikandl.com

- علم الدين، مصطفى سليم – نبيّ جبران وزرادشت نيتشه، مؤسسة خليفة للطباعة، ١٩٨١.

- غريّب، روز – جبران في آثاره الكتابية، دار المكشوف، ١٩٦٩.

- فاخوري، رياض – النفس الطاهرة بين جبران والحويّك، ١١رسالة جديدة وميشال بصبوص، دار مصباح الفكر بيروت، ١٩٨١.

- قاسم، محمد – لغة جبران بين التهافت والإبداع، دار الإنشاء طرابلس، ١٩٨٤.

- كرامة، نبيل – جبران خليل جبران وآثاره في الأدب العربي، دار الرابطة الثقافية، بيروت، ١٩٦٤.

- كرم، أنطوان غطاس – محاضرات عن جبران خليل جبران: سيرته وتكوينه الثقافي.

- كيروز، وهيب – عالم جبران الرسّام، لجنة جبران الوطنية، توزيع مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٢.

- كيروز، وهيب – عالم جبران الفكري، بشاريا للنشر، ١٩٨٣.

obeikandl.com

- متيني، داود سليمان – جبران الشاعر، الموصل، ١٩٤٥.
- مسعود، حبيب – جبران حيّاً وميتاً، دار الريحاني للطباعة والنشر بيروت، ١٩٦٦.
- منعم، الأب طانيوس –جبران والكنيسة، دار الإنشاء طرابلس، ١٩٨٣.
- نجم، خريستو – المرأة في حياة جبران، دار الرائد اللبناني الحازمية، ١٩٨٥.
- نعيمة، ميخائيل – جبران خليل جبران، مؤسسة نوفل بيروت، ١٩٧٨.
- يعقوب، أميل بديع – جبران واللغة العربية، جرّوس برس طرابلس، ١٩٨٥.
- يونغ، برباره – هذا الرجل من لبنان: جبران خليل جبران، ترجمة سعيد عفيف بابا، مطبعة صفدي التجارية، ١٩٥٣.

obeikandl.com

٣- فهرس الكتب التي تناولت جبران بالبحث باللغة العربية

- أبو شادي، أحمد زكي – دراسات أدبية، القاهرة، مكتب المعلومات الأميركي، ١٩٥٧.
- أبو شبكة، إلياس – روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة، بيروت، دار المكشوف، ١٩٤٣.
- إدريس، سهيل – القصة في لبنان، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٧.
- أدونيس [علي أحمد سعيد] – مقدمة للشعر العربي، بيروت، دار العودة، ١٩٧١.
- الأشتر، عبد الكريم – النثر المهجري، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦١.
- البشعلاني، أسطفان – تاريخ بشعلي وصليما، بيروت، مطبعة نوفل وجميل، ١٩٤٧، ص٥٢٤-٥٢٦.
- بطي، رفائيل – سحر الشعر، بغداد، المكتبة العصرية، ١٩٢٢، ص١٢٣-١٢٦.

obeikandl.com

- توتل، فردينان – المنجد في اللغة والأدب والعلوم، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٠، ص١٣١.

- حسن، محمد عبد الغني – الشعر العربي في المهجر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٥٥، ص١٧١–١٧٨.

- الخوري، إبراهيم – نوابغ الأدب، مقال عن جبران، ص٥–٤٦، (لا يذكر الكتاب اسم الناشر أو التاريخ).

- الخوري، رئيف – الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، بيروت، دار المكشوف، ١٩٤٣.

- خوري، الفرد – الكلمة العربية في المهجر، بيروت، دار الريحاني للطباعة والنشر، ١٩٦٠(؟).

- بولس، متري سليم – في أدب النهضة الثانية، gate ١٩٨٥.

- الخوري، وديع رشيد – ظهور وتطور الأدب في المهجر الأمريكي، بيروت، دار الريحاني، ١٩٦٩.

- داغر، يوسف أسعد – مصادر الدراسة الأدبية، صيدا مطبعة دار المخلّص، ١٩٥٦.

- ديب، وديع – الشعر العربي في المهجر الأميركي، بيروت، دار الريحاني، ١٩٥٥.

- رضا، محي الدين – في موطن جبران خليل جبران: صور ومشاهد من ماضي لبنان وحاضره، القاهرة، المطبعة التجارية الحديثة، ١٩٥٠، ص١٩٢.

- زكّا، نجيب منصور – أقلام مهاجرة، شركة المطابع الحديثة، ١٩٨٠.

- زكي الدين، محمد – أعلام الأدب والكتابة والشعر، القاهرة، (لا يذكر الكتاب اسم الناشر أو التاريخ).

- زيادة، مي – حضارة العصر الحديثة، القاهرة، ١٩٣٣، (لا يذكر الكتاب اسم الناشر).

- سرّاج، نادرة جميل – ثلاثة روّاد من المهجر، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤.

- سرّاج، نادرة – شعراء الرابطة القلمية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٧.

- سركيس، يوسف – جامع التصانيف الحديثة التي طبعت في البلاد الشرقية والأميركية من سنة ١٩٢٠-١٩٢٦، القاهرة، مكتبة سركيس ١٩٢٧. ج١، ص٤٧، ٥٠، ٨٠.

- سركيس، يوسف – معجم المطبوعات، القاهرة، مطبعة سركيس، ١٩٢٨-١٩٢٩، ص٦٧٤.

- الشنّاوي، كامل – الذين أحبّوا ميّ وابريت جميلة، القاهرة، دار المعارف بمصر (لا يذكر الكتاب التاريخ).

- شيّا، محمد شفيق – في الأدب الفلسفي، بيروت، مؤسسة نوفل، ١٩٨٠، ص١٩٧-٢٢٤.

- شيّا، محمد شفيف – فلسفة ميخائيل نعيمة: تحليل ونقد، بيروت، منشورات بحسون الثقافية، ١٩٧٩، ص٣٢٤-٣٢٧.

- شيخو، لويس – تاريخ الأدب العربي في الربع الأول من القرن العشرين، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٦.

- صبّاغ، الياس – وحي الكؤوس، بوستن، المطبعة السورية، ١٩٣٢.

- صرّوف، فؤاد – مشاهد العالم الجديد، القاهرة، مكتبة العرب، ١٩٢٥.

- صيدح، جورج – أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركي، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٤، ص٢٤٢-٢٥٩.

- عبّاس، إحسان، ومحمد يوسف نجم – الشعر العربي في المهجر (أميركا الشمالية)، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٥٧، خاصة ص٤١-٥٣ و ٧١-٧٦.

- عبّود مارون – مجدّدون ومجترّون، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦١، ص٢٠٠-٢١٤.

- العقاد، عباس محمود الفصول، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧.

- عوض، ريتا – أدبنا الحديث بن الرؤيا والتعبير: دراسات نقدية، بيروت، المؤسسة العربيد للدراسات والنشر، ١٩٧٩، ص١٨٩-٢٠٣.

- الفاخوري، حنا – تاريخ الأدب العربي، بيروت، المطبعة البولسية، ١٩٥٣، ص١١١٤-١١١٧.

obeikandl.com

- فارس، فليكس – رسالة المنبر إلى الشرق العربي، الإسكندرية، ١٩٣٦، ص٩٩-١٣٢، ١٥٣-٢٢٥.

- كاتبة، حبيب – الناطقون بالضاد في أميركا، ترجمة يعقوب عودات، القدس ١٩٤٦، (لا يذكر الكتاب اسم الناشر).

- كحّالة، عمر رضا – معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٥٧.

- الكيّالي، سامي – الراحلون، القاهرة، دار الفكر العربي، [؟ – ١٩٤] ص١٥-٢٨.

- لبكي، صلاح – لبنان الشاعر، ١٩٥٥، ص٩٤-١٢٤.

- لوسيرف، جان – النزعات الصوفية عند جبران خليل جبران، ترجمة شعبان بركات، صيدا وبيروت، لا.ت.، (لا يذكر الكتاب اسم الناشر).

- المقدسي، أنيس الخوري – الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٠.

- مندور، محمد – في الميزان الجديد، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٤.

obeikandl.com

- الناعوري، عيسى – أدباء من الشرق والغرب، بيروت، مطبعة عويدات، ١٩٦٦.

- الناعوري، عيسى – أدب المهجر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٧.

- نجم، محمد – القصة في الأدب العربي الحديث، القاهرة، دار مصر للطباعة، ١٩٥٢، ص١٢١-١٣٢، ٢٦٢-٢٧٧.

- نخلة، أنيس – النبوغ اللبناني في القرن العشرين، حلب، مطبعة العصر الجديد، ١٩٣٨، ج١، ص٩٠.

- نعيمة، ميخائيل – الغربال، بيروت دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠، ص١٤٣-١٤٩، ١٨٤-٢٠٤. (الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٢٣).

- نعيمة، ميخائيل – في مهب الريح، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٢.

- نعيمة، ميخائيل – المجموعة الكاملة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٠.

- يمين، محسن أ. مساجلات قلمية منسيّة، جرّوس برس طرابلس، ١٩٨٧.

obeikandl.com